مؤيّد الراوي

مَمالك

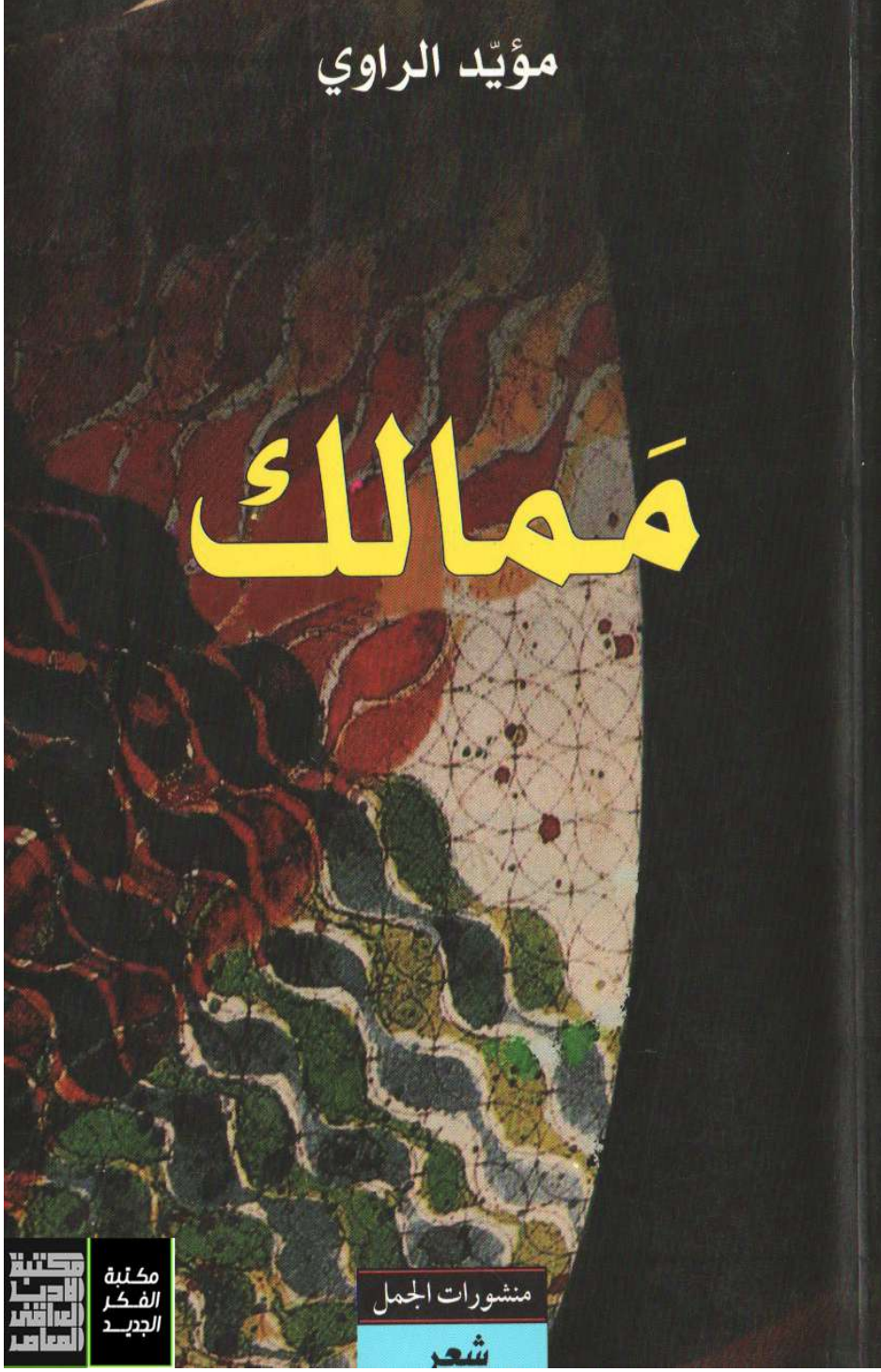

منشورات الجمل

شعر

مكتبة الفكر الجديد

الأدب العالمي

مؤيّد الراوي: ممالك

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

مؤيّد الراوي

مَمالك

شـعر

منشورات الجمل

مكتبة
الفكر
الجديد

ولد مؤيد الراوي في ١٩٣٩ في مدينة كركوك، شمال العراق، وأنهى فيها دراسته الثانوية، ثم عمل في سلك التعليم بعد أن حصل على شهادة دار المعلمين. غادر كركوك وعاش في العاصمة بغداد حتى العام ١٩٦٩ مشاركاً في الحياة الثقافية، وساهم في تأسيس عدد من الصحف فيها. اعتقل مرات عديدة وسجن في العام ١٩٦٣ إثر الانقلاب الدموي لحزب البعث مدة عامين ثم فُصل من الخدمة. اعتبر أحد رموز التجديد في الشعر العراقي الحديث بقصائده التي نشرها وبآرائه النقدية في مجال الأدب والفن، وكان منذ بداية كتابته الشعر اعتمد تقنية قصيدة النثر معتبراً التفعيلة بإيقاعاتها وإلزاماتها التقنية مضادة لحرية نص مفتوح. غادر العراق أوائل سنة ١٩٧٠ بعد الانقلاب العسكري الثاني لحزب البعث، بسبب الملاحقة السياسية، إلى عمّان ثم إلى بيروت حيث عمل في عدد من الصحف والمجلات العربية، ومكث فيها حتى نهاية العام ١٩٧٩ معايشاً الحرب الأهلية فيها، ثم اضطر إلى مغادرتها بسبب ملاحقة المخابرات العراقية. صدر ديوانه الأول احتمالات الوضوح ١٩٧٧ في بيروت. يعيش في برلين منذ العام ١٩٨٠ مع زوجته وطفليه، تُرجمت قصائده إلى العديد من اللغات العالمية.

مؤيّد الراوي: قمالك، شعر
الطبعة الأولى ٢٠١٠
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٠
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2010*
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

مكتبة الفكر الجديد

إلى زوجتي فخرية صالح

أعانتني كثيراً في إنجاز هذا الديوان

مكتبة الفكر الجديد

رأيتُ رجلاً
يهيمُ بوجههِ في متاهة البراري
حاجباً الشمسَ بكلتا يَديه
عارياً ينتظر الليلَ
يرفعُ رأسهُ عالياً
فيطلقُ صرخةً موجوعةً
بوجه السماء.

قلتُ له ماذا تفعل
قالَ أعوي،
إنني أعوي
طوالَ الليلِ
لعلَّ قمراً مكتملاً يفيقُ
فيرجعني ذئباً
أتآلفُ مع الناس
واتطابقُ مع دخيلتهم
لنذهبَ سَويّةً إلى حيث
رائحة الدم تفوح.

مكتبة الفكر الجديد

ممالك الوهم
وهم الممالك

الأفكارُ ممالكٌ تقترنُ بنا فتوشم جبيننا
نظن بأننا ندعوها كأعراسٍ تدوم، نحتفلُ بها،
أو نطردها عندما لا نريد، لكنها تستملكنا،
تاتي إلينا بخفةِ لصٍ وبسلطة سجّانٍ،
نجهلُ كيف تأتي لتسكن فينا
وكيف تصلُ لتحجزنا.

نحنُ حقلٌ فسيحٌ، تربةٌ خصبةٌ
مفتوحة للبرقِ وللمطر، تعطي الثمارَ وتترك الملحَ،
أرضٌ مُشرعةٌ يأتيها الغرباءُ،
تخطو إليها النوايا وتسير صوبها الافكار،
حقلٌ، بحيرةٌ نُحفرُ لها قنوات بسدود.
في البحيرة الشاسعة تسبحُ أسماكٌ، معطاةٌ لنا،
تفلتُ من شِباك الصيد لتسبح في مائنا القليل،
أسماكٌ مثل حزم الفضةِ مجدولةٌ، صنعها حدادٌ،

مكتبة الفكر الجديد

نعلّقها في رقابنا تعويذةً للخلاص
لكننا لا ننجو بها من القيود.

في الرؤوس يدور مهرجان الخفايا ويتعمق الغموض،
كما العناصرُ تتقاتلُ ثمّ تتماثل، والطبيعةُ تتحوّلْ،
تستملكنا الأفكارُ بتقلباتها؛ مباهجها الجميلة واللئيمة.
نحنُ مستعمرةٌ، بلادٌ موعودة للفلاحة، يأتينا غزاةٌ اصدقاء،
خدمٌ مراؤونَ ـ خدمٌ مطيعونَ، يقدحون الزنادَ
في حقلٍ يابسٍ حرقتهُ الشمسُ ومضتْ،
هكذا بغير الخدمِ لا يبقى فينا بريقٌ
يرصد التحولَ
لتبدأ الدورةُ
من جديد.

ما نملكهُ في الحضور وفي الغيابِ حالات مقيّدة،
أو نظن ذلك؛ معقدة البنية مثل كيس مهرج
تفلت منه عقارب وطيور جارحة،
ويحتوي على شِباكٍ وفخاخٍ وحقول،
تتبادل الادوارُ أحياناً فتتغيرُ الطقوسَ.
نحن أسرى الممالك نرتجفُ مرةً
ونغتبطُ حينما تتركنا،
لكنها قدرٌ يلازم قدرنا؛

مكتبة الفكر الجديد

نحن الممالكُ مستوطنون فيها
نحن الممالكُ تستوطنُ فينا
ممنوحون لها.
حالات راهنة
وآمالٌ مؤجلة.

مملكةُ الاسرار في الرأس، تستظيفنا وتستعبدنا،
تقود قوّتها المبهمة سيرةَ عوالمٍ مبهمة
تمتلكُ الهواجسَ والأفكار.
عمارةٌ واحدةٌ تتشكل في لا مكان؛ لانعرفُ بُناتها،
عَوّدتنا أن لا نعرفَ أبوابها وخطوها البطيء نحونا،
تتكشّفُ فجأةً كمهرجٍ يخادعُ الناس،
يدخل الرأس فلا نفقه بأنهُ مسحورٌ
يمتّعنا ثمّ يثير فينا البكاء.

ممالكٌ نتوهّمُ بأننا نسكنها فنخلدُ إلى عطاياها
نفرحُ بها ونغضبُ منها في قتالٍ غير مثمرٍ،
تتركنا سرعان ما تحملُ لنا الغبطة.
هكذا تبقى المملكة منصوبة كفخ
يبحثُ عن صياد
يشيد لها سوراً
أو يهدم السورَ

مكتبة الفكر الجديد

ليفتحَ فضاءً
في مملكةٍ جديدة
وهكذا

مكتبة
الفكر
الجديد

ممثلون

مشاهدٌ واحدٌ في هذا المسرحِ
ومُمثلٌ على الخشبة،
بيتهما وما يملكان فيهِ مُجرّد وَحشة تتكاثرْ.
ثنائيانِ هما، يَستنسخانِ الأدوارَ وينتظرانِ التحوّلْ
(أن تشتعلَ النارُ في الستارةِ، تتصادم الأجرامُ،
والقيامةُ توذِن بالمجيء)

هذا المسرحُ الموقوفُ عن التحوّلِ بوّابةٌ
لا تدخلها الضغينةُ ولا البهجة،
أسقطَ صانعها المزلاجَ
ليحتفي وحدهُ بالسكون.
خُذِلَ البناءونَ،
وحَفّارو حفرة العَرضِ لم يعودوا
يطلّونَ على العالمِ منها.
الكونُ هادئٌ
لا يفدُ إليهِ
المستطرقونْ

مكتبة الفكر الجديد

والمشاهدونَ يمرّونَ خفافاً
يرصدونَ الحدثَ، والحدثُ نائمٌ في غيبةٍ لا يستيقظ.

في ذلكَ المسرح الآن أحداثٌ لا تحدثُ؛
يلغطُ الحكواتيُ مُخدِّراً، نائماً،
ثمّ يكرّر الروايةَ نفسها ويلوكها.
الستارةُ مُشرعةٌ والناسُ يمرّون:
ممثلونَ بوجوهِ غيرهم
يريدونَ إثارة مُشاهدٍ غير مكترث
يبدّلونَ الأدوارَ، مشاهدونَ ممثلون،
وممثلونَ يشاهدون،
في مرآةٍ عظيمة الاتساعْ،
عالماً لا يتشكل، كما في البيتِ مثلهُ في المدينة،
وقائعهُ معلنةٌ ومُمِلّة،
معروفة كالطريقِ الملتوية،
تصلُ دوماً إلى المنحدر نفسه.

أولئكَ الناسُ هم المارة
أجسادهم منتشية، يتلمّسونَ جلودهم المسلوخةِ
يرفعونها مثل ستائرَ ملوّنة
وأعضاءُ الآخرينَ في حلبةٍ تدور.
هذا المسرح يؤجرهُ بطلانِ، من هذا الزمان،

مكتبة الفكر الجديد

ممتلئانِ بماضٍ يجلسُ أمامهما ويجادل.
قلبانِ حُرثا بالانتظارِ تأتي عليهما الزوبعة،
يمنحُ أحدهما الآخرَ وجهَهُ،
يُعطيهِ القناعَ الممزق
بعد أن راحتِ الكلماتُ وجفّتِ الحركات.

لا يستأنسُ الشاهدُ ولا يستمتعُ بما لا يتحوّلْ
يمتثلُ للزهدِ في ساحةٍ ساكنة
ويُمَثّلُ في غيابِ العداوةِ نفسهُ
ضجراً يحفرُ في بئرهِ الناضبةِ باحثاً عن الحدث
والحدثُ في غيبةٍ يتململْ.

لأنَ الليلَ مملوءٌ بالهواجسِ، وستارتهُ الظلمة،
تلوكُ الضغينةُ سيرةَ قبطانٍ يبحرُ في الحكايةِ مثلما يُريد،
في كلّ جزيرةٍ يشيّدُ مملكةً.
مسرحٌ للغوايةِ تلكَ الممالكُ
والناسُ يتدافعونَ لنَصب العروش.
في هذا المسرح ينبغي
أن نعيدَ التكوينَ قبل الكلام.
مَن يتحدثُ ليس كمن يحفرُ ويغيّر،
يرفع صخرةً في البركةِ يلقيها،
تبدأ الموجةُ

مكتبة الفكر الجديد

لتنتحلَ البحرَ:
أنا السيّدُ أصطخبُ بالعواصفِ
غذائي قراصنةٌ ومسافرون
وحيتاني تنتحرُ على الشواطئ
أمتدّ
واسعاً
خدمي مسافرونَ
مغلّفونَ مثلي بالحمّى
يرثونَ العدوى
ممن لا يَعبأ بالجنون.

في هذا المسرح، نحنُ الممثلونَ ونحنُ المشاهدون،
قبلَ الكلام نُغيّرُ جلودنا لنعيدَ طقسنا القديم.
مُعطى لنا مثل قَدَرٍ، أو ينبغي أن نصنعَ بهِ القدرْ.

في لحظةٍ، فجأةً، ينقلبُ المشهدُ
تبرقُ البروقُ لتحترقَ الغابات،
والأنهارُ تفيضُ بالغنائم
تشوي النيرانُ اللحمَ والأجسادُ تتفتتْ.
مجهولونَ غابوا، لهم الوقائع والكتب والغنائم
يبيعونَ الخسارةَ ويريدونَ التحوّلْ،
كُتِبَتْ أسماؤهم، يتدافعونَ منذ انبسطتِ الأرضُ

مكتبة الفكر الجديد

والليلُ رَشقَ السماءَ بالنجوم.
حملوا الأحداثَ،
صنعوا الأحداثَ
كأنهم رواةٌ يستنسخونَ ما أُعطيَ لهم
فغابت الحكمةُ، وامتلأ
المسرحُ
بروادٍ
وممثلين.

العالمُ غرفةٌ
تصغرُ وتكبرُ مثلما يرادُ لها
تتحوّلُ بإشارةٍ من الغيبِ إلى احتفال
تُذبحُ فيها الذبائح؛
ساحة مَسلخٍ والقصابونَ فيها مُجدّون
يمنحونَ الضحايا وثائقَ البراءة،
لا تفيدُ النوايا كلّ فريسة مدموغة بالقدر.

يحفرُ الممثلُ في هواجسِهِ القديمة
ليعثرَ له في عمق مَن راكمَ الحكاية
شهوداً يطرقونَ الأبواب،
وعلى مائدةِ قلبِهِ المحترقِ يستضيفُ الأسلافَ:
رواةٌ ـ رواةٌ غاضبونَ يستحضرونَ الوقائعَ

مكتبة الفكر الجديد

يسلخونَ الجلدَ ويفقأ ونَ العيون.
يقدحُ المشاهدُ الصخرةَ بالصخرةِ ليذكي الحريق،
يضعُ السكينَ في اليدِ، يلوّحُ بها، كأنّ العالمَ يقفُ
على حدّ شفرةٍ ليتقطّع؛
عالمٌ مجروحٌ بالحكايةِ فرحٌ بالحدثْ.

الكلُّ رواةُ حكايةٍ
عن الأسودِ في مخالبها مِزق اللحم،
والكلّ يستذكرُ القناعة ويسائلُ المجهولَ،
أي جهنم نريدُ كي نتدفأ؟
أيّة مَشاهِد نمثلها ليأتي الجمهورُ عاصفاً؟
أي حب شامل ندوّن بهِ الخطايا
ثمّ نُقرنها بالخلاص؟
ما من حكمةٍ سوى أن تتماثلَ الأقنعةُ؛
شياطينٌ وملائكةٌ يتآخونَ وينبذونَ الهدوء.

على الخشبةِ ممثلٌ بيدهِ الفأس
والمشاهدُ مُسلّحٌ بالمديَةِ يحبُّ دَورَهُ.
في هذا العالم الستارةُ مُشرّعةٌ، بنقيع الدم مُلطخةٌ،
يتقاطرُ الناسُ من أجلِ الخلاص.
ما أن تُرفعُ الستارةُ
تتحدّثُ رؤوسٌ مقطوعةٌ

مكتبة الفكر الجديد

ورؤوسٌ مرفوعةٌ تلهثُ بالصلاة.
الكلّ ممثلٌ
والكلّ مُشاهدْ،
يضخُّ في الماكنةِ الغامضةِ
ما يظنّهُ وقوداً للخلاص.

في هذا الكهف الذي حَفَرَتهُ
العادةُ القديمة
ممثلونَ يرفعونَ الستارةَ عن ما هو محجوب
ومشاهدونَ يَرِثونَ حُمّى المشاركةِ في الحدث
واثقونَ بأنّ العدلَ سيأتي،
هذهِ المَرّة أيضاً،
بوجهٍ ناصعٍ منزوع من القناع
فتنمحي بأيديهم
تلكَ الخطيئة
القديمة

مكتبة الفكر الجديد

سلالم

شخصٌ ما، في سقيفتهِ العاليةِ، يختبئ،
يَظنّها قمرةَ قبطان سفينةٍ مُبحرة،
والسواحل يمدُّ اليدَ إليها فتبتعدُ
وتبتعدُ
كالزمن الذي اشتراهُ ثمّ ضاعْ.
يحصي وينضّد فيها، عبثاً، أعوامَهُ الميّتة،
فتغطّي وَجهَهُ غمامةٌ.
لا يبصرُ،
لا يريد أن يبصرَ.
سرعانَ ما ينزلُ سُلماً،
من طوابقهِ العليا،
دَرَجَةً
دَرَجَة
حاملاً جثّةَ زمنهِ.
حَيثما يطأ حَفرٌ في بئرٍ عميق،
ويهبطُ مُخدّراً نحوَ كهفهِ،
ينزلُ

مكتبة الفكر الجديد

وينزلُ
مُثقلاً بمتاعه.
يصادف في العتمةِ نفسَهُ ـ
يمسّها ويصعدُ خفافاً
يتقدمهُ وهجُ نورٍ يزيد من عماه.

ـ أعرفُكَ؟
ـ كلاّ
ـ لكنني التقَيتكَ؟
ـ ربما،
في ظلمَتك،
أنا أصعدُ السلّمَ
وأنتَ تنزلهُ،
غير مَعنيّ بالصعود.

شخصٌ ما؛
كائنٌ مُضمّدٌ بالقماشِ، ثقيل الحركةِ،
لا يَحفرُ في قلبهِ، ويتوخى أن لا يمسّ قلبَ الآخرين،
ينزعُ إلى الهدنةِ مثقلاً بأحجارهِ
غير مكترثٍ بالصعودِ أو بالنزول؛
خلدٌ يحفرُ مُختَبِئاً من الوهجِ،
درجات سُلّمهِ مُزدحمة بهِ. يغلقُ صندوقَ سنواتهِ

مكتبة الفكر الجديد

على سِرٍ يقتاتُ عليه، ويلعبْ.

يصعدُ

وينزلُ

غير مبصرٍ، عبر الرواق، تلكَ السماء حينما يرتقي،

وفي هبوطهِ، كلما لامسَ القاعَ،

يُعمِّقُ في الأرضِ حُفرةً.

سريرةُ الحفرة

للمخبأ

الأخير

مكتبة الفكر الجديد

موكبُ آذار

يأتي الربيعُ كلّ عامٍ إلى هذهِ البلاد، بيدهِ المفاتيح. يشرعُ بابَ الخلاصِ موصداً باب النوايا. حدّادٌ هذهِ المرّةَ، ينفخُ في الكور، صانعهُ فتىً في هيئةِ صلصال، روحهُ غريبةٌ. ظلَّ الطريقَ وحلَّ في شارعِ الموكبِ الجديد، مُثخّناً بالجراح، طَرَقَتْهُ التجربةُ وأطفأتهُ مياهُ المعرفة.

في دربِ المواكبِ صنّاعٌ ينحتون أسوداً وضباعاً، ويُرَكّبونَ على الرؤوسِ ثعالبَ يستحضرونَ بها صورةَ تنّين. مائدةٌ للخلق هيَ فيها أسودٌ للحكمةِ وأسماكٌ للمعرفةِ ومُطَهِّرٌ بالنار؛ تنّينٌ يشعلُ حَطبَ المِحْرَقة.

جاءَ الفتى في هيئةِ صلصالٍ وروحهُ قديمة. حلَّ في الموكبِ مثخّناً بالجراح. منطفئ مصباحهُ، وقد افتَقَدَ الزيتَ، منتظراً العابرين. يرخي ما يحملهُ من كنوزٍ وهيَ تقتربُ من النار؛ كنوزٌ من رجالٍ ذوي حكمة، يباركونهُ ويحزنونَ عليهِ من الصعاب، ثمَّ يُقدّمونَ لهُ النُصحَ؛ أن لا يمرَّ بالعهود، ولا يحلَّ في غيرِ زمانهِ. ومن يحلّ يبدو غريبا، يتخيّلُ البلادَ نهرينِ يفيضانِ ويَجفّانِ وفقَ ما يقتضي القدر. كلٌّ يغرقُ بالماءِ مرّةً، ومرّةً يموتُ من العطش.

مكتبة الفكر الجديد

أولئكَ الغرقى يأتونَ أشباحاً إلى المهرجان، تُخرخشُ سلاسلهم، تُصلصلُ سيوفهم، والرايات بلون القبائلِ تمضي إلى بَوّابة الجحيم. يفتحُ بابهُ ذلكَ الفتى، حُزناً على العهد. مُنتقياً جلبها، ولا يعرفُ كيفَ جَمَعَها وقد أطفأ مصباحَهُ، وكيفَ أوصَلَ الفصولَ، وَلِمَنْ يعطي هداياهُ والنيرانُ تشتعل. وَلِمَ أتى إلى العصرِ ـ هذا الفتى:

١ ـ

إنّهُ البهلوانُ،
طيفٌ من ذلكَ الزمانِ آتٍ،
خفيفُ الظلّ، لصيقٌ بالحبال
مَشى العهودَ عليها، ورأى الغمرَ قادماً،
ثمَّ أبصَرَ بهِ سُحُباً منَ الطين
فالتوى
تَحْتها
يَختبئ

٢ ـ

بهلوانٌ مُعَلّقٌ، غَير عابئ بالأرضِ ولا يَعرِفُ الأوقات.
ليسَ من قديمِ الزمانِ مستنسخٌ،
لكنّهُ قديم. يَمُرُّ الآنَ في سُحُبٍ من أحجارٍ وحديد.
ينوءُ بِثقلها، مُصابٌ بحمّى،

مكتبة الفكر الجديد

لا يدٌ تَمسَحُ جبينهُ، والدم في راحتيهِ يفور

٣ ـ

بهلوانٌ من حَجَرِ البازلتِ يقعي
مَثلوماً بفأسٍ،
أخطأتهُ يَدُ أعرابي من البادية، مُغَطّى بأسمالٍ،
يعدُّ النقودَ ولا يَعبأ بالحَجَرْ.
(أيّ مَجدٍ لماضي الزمانِ، والريحُ تأخُذُ خَيمَته)

٤ ـ

هوَ البهلوانُ، من فوّهةِ بركانٍ تدَحرَج؛
حَجَرٌ مُشَذَّبٌ كَتَبَ لنا الحكمةَ
تَعويذةً على هيئةِ روحٍ ماثلة.
جنديٌّ من أُور،
أو كاهنُ مَلِكٍ من لَكَشْ
لوْحَ لجيشٍ سركونَ
ودلّهم إلى بحرِ الجنوب

٥ ـ

بهلوانٌ، من البازلتِ تحتَ التراب، مَثلوم الجبينِ
بِطرقةِ مُغَفّلْ،

مكتبة الفكر الجديد

مَرَّ بالعهودِ يُحصيها، وبعينيهِ حُزنٌ عميق،
ثمَّ جاءَ ليَحمي نفسهُ من الذئاب.
يَمشي على خَيطٍ فوقَ نيرانٍ، وفي البعيدِ
قُسْحَةٌ من الجنّة،
قَبلَ أن يُعَمّدَ المسيحُ
أو يأتيَ مُحَمّد

٦ -
هوَ البهلوانُ الأعرجُ، ظنَّ الحبالَ مشدودةً
فتَغافَلَ عنِ الوقتِ، يَنصبُ الآنَ مَسرَحَهُ:
جيشانِ يشعلانِ النارَ
بوقودٍ من حجارة.
يهابُ هذا العَهدَ بميراثهِ
يخافُ هذا الوقتَ بفخاخهِ
أن يُرخي الحبالَ
فَيحتَرق

مكتبة الفكر الجديد

شخصان

عن أحداثِ أمس
يقرأ العجوزُ في المقهى.
وأنا، الجالسُ في الركنِ القصيِّ، مرآتهُ العكرة،
أدخلُ دخانَ رأسهِ؛ كغيمةٍ
فوقَ أكواخ القريةِ، من نار الحطب.
لا أعنيهِ ولا تعنيهِ اليقظةُ في الظهيرة،
لا يكرر القرية بل يوصلها، في سماءٍ مزدحمةٍ بالصور.
القرية على النهر تتشمسُ
في بلادٍ بعيدة، كلٌّ منا في صحوهِ وفي النومِ يراها
متربةً مهجورةً، كلابها سائبةٌ.

ما نلمسهُ هنا تبغنا والقهوة السوداءَ فوقَ المنضدة،
أراهُ يرتشفُ ويمتعضُ. أرتشفُ القاعَ المرَّ وأحصي الأيام.
ها هيَ مكنسةُ الزمنِ
كوّمتهُ في مقهى، على كرسيّ، خلفَ لوح الزجاج:
وأنا توأمهُ المنسيّ أستنسخُ الماضي.
تمرُّ بنا الرؤى ـ طريقنا المغلقُ ـ فطورنا الصباحي

مكتبة الفكر الجديد

مُغمّسٌ بالهذيان.

صخبُ الناسِ والناسُ خلفَ الزجاجِ أشباحٌ:
عُشّاقٌ، وبائع الوردِ، عازفُ الموسيقى يجمعُ النقود.
في الباحةِ أمام الأُسرةِ التي جاءت
يتطايرُ تاجُ البيرةِ بالريحِ الجنوبية،
وفي هذا الشمال
بخارُ فمكَ يتقدمُ،
يَدخلُ البردُ شظايا زجاجٍ في العظام.
مُصابٌ بعنّةِ الكلام تومئ باليد الثقيلةِ
مثل شحّاذٍ يستعطي النقود.

خلف الزجاجِ، تلك العائلة، نظنها سعيدةً
برفقة كلبها الأسود؛ يجولُ ويجولُ ويلطع البلاط،
يشمشمُ تحتَ الأقدامِ الفتاتَ.
يبحثُ عن المودّةِ.
ربما هو كلبهُ الأسود (عقدُ صداقةٍ بينهما)
أتى من تلكَ القريةِ البعيدةِ على النهر
لا ليشربَ القهوةَ بل ليشمشمَ الأثر.

إستدرْ أيها الكلبُ لنرى البقعةَ البيضاءَ تحتَ عنقكَ.
جئتَ لاهثاً باحثاً تعلنُ الضياعَ وتبحثُ،

مكتبة الفكر الجديد

تحملُ على صدركَ السحابةَ البيضاءَ؛
في سوادِ فروتكَ غيمتنا، ونحنُ نشكُّ
في الصحيفة؛ لا خبر عن مهاجرٍ، أو عن سفينةٍ جنحتْ.

أُخرجْ من بينَ أقدام العائلةِ معلناً سوادكَ،
ارفع فكّكَ المستدقَّ
بوجهِ السماء.
اطلقْ عواءك
لتمطرَ الغيمةُ فيكتمل
هذا السواد

مكتبة
الفكر
الجديد

تماثلُ الصورة

في غرفةٍ ما، أمامَ نافذةٍ مُسدلة الستار،
يكمنُ قاتلٌ يرصدُ الظلالَ المبهمة.
يَمتثلُ كصديقٍ واضح الملامحِ حينما يرادُ منهُ ـ يتشرَّبُ
بسحنةِ مَن يرصدهُ. ولكي يستكمل المهمةَ
يحملُ وثيقتينِ من البراءة:
وجه حملٍ مُهَدَد بسكين،
ومخلب صقرٍ مضموم.
قاتلٌ يتخفّى، ثمّ يتململُ داخلَ سياج الحديقة،
لا يعبأ بالوقتِ المؤجّلِ، لأنّ الوقتَ رصيدهُ.
يراقبُ الضحيّةَ،
يداعبها بالتخفّي،
يناجيها،
ويُخوّفها
في الغسق الذي تعكّرُ صفوهُ الطيور.
يجثو أحياناً كضبعٍ مجروحٍ، وفي مراتٍ يتحفّز.
يعرفُ مَن يراقبهُ في الغرفةِ سيبللُ العَرَقُ خوفاً عانته.
يراهُ مِن خلف الستارةِ طيفاً حرجاً

مكتبة الفكر الجديد

فيستمرئ اللعبةَ ويقلّبُ الأهواءَ،
يستذكرُ التجاربَ فيها ويعرفُ خفايا التوجسْ.
وجههُ مشبوهٌ كحضنِ شجرةٍ مقصوفةٍ،
يقفُ، هناكَ، في ظلِّ عمودِ الضوءِ
باستقامةِ قامته. يخترعُ النورَ، ليكشفَ عن نفسِهِ،
يوهمُ بالأمانِ
ويحملُ بيدهِ زهرة،
يخفي في ردائهِ
نوايا الاحتراق بينَ النجوم.

في مكانٍ ما، خلفَ النافذةِ ـ هذه المرة.
تتكوّنُ وتتماثلُ مع هدايا العمرِ،
هيئة قاتلٍ بريء يترصّدُ مَن يترصّد الطريدة،
يُفعّلهُ وينسجُ الظنونَ حولهُ فيلمحُ فيهِ العداوة.
قاتلٌ حَذرٌ من ضربةٍ خاطئةٍ ستأتي.
يدٌ تخطئُ فتنزِل من المجهولِ فأساً أو صخرةً؛
هكذا كانَ المسارُ دوماً، وما هو مؤجلٌ ستجلبهُ العاصفة،
تقتلعهُ مِنْ أسرار حقولٍ غامضة.

خلفَ النوافذِ
وأمامَ النوافذِ،
في بيوتٍ مُحتميةٍ بالأبواب المرَتّجة،

مكتبة الفكر الجديد

يجولُ أعداء مبهمونَ، منذ أزمانٍ، منذ الصُدف الماضية.
يترصّدُ الأصدقاءُ أهواء غامضة الاحتمالات،
من صُدفٍ ليست صُدفاً إنما هي علاقة مصابة بالعداوة،
في لحظةٍ منسيةٍ تحفرُ ثقوبَ دمٍ متخثر
توشمها يدٌ ثقيلةٌ لا تقوى على الاختفاء،
نِيّةٌ تتسترُ بالضوءِ
وتختزنُ غشاوةَ الرؤية.
مِضخّةٌ مِنَ الشكِ، ومِن الوقتِ، ومِن مضيِّ العمرِ
تخصّبُ الذاكرةَ: أشباحٌ تجولُ، مرةً أليفة، وأخرى
في هيئةِ قاتلٍ وتوجس بالقتل المرتقبْ.

عَدوٌّ خلفَ النافذةِ يرسلُ العلامات
وقاتلٌ أمامها، يأسرهما حنينٌ موجعٌ للتماثلْ،
تمزجهما الفطرةُ الجامحةُ لتوصلَ الموجةَ إلى الجسد.
شخصانِ يتداخلانِ ويتوزعانِ مع الأهواءِ ـ مشروعٌ للتمازج
نُجَسّدهُ، ثمّ نخاف أن يكونَ أليفاً، أو أن يناقضَ الألفةَ.

قاتلٌ أمامَ النافذةِ نتعثّرُ بهِ ـ مثلنا هوَ.
واضح العينينِ بغير قناع.
صدفةً في الملاقاةِ يعتذر،
يغمغمُ ماداً كفّهُ
ثمّ يَغتربُ متلاشياً في الفسحةِ المبهمة

مكتبة الفكر الجديد

فلا يعرفُ أحدنا الآخر.
كلٌ يرصدُ ظِلالهُ، في الغرفِ،
وعلى الجدرانِ تمشي عناكب وطيور تلتصقُ بالسقوف.
في كلّ غرفةٍ نوافذ تطلّ على مساحةٍ متروكةٍ من التوقعِ
تخترعُ حدائقَ لدبيبِ حشراتٍ وثمارٍ فاسدةٍ في الرؤوس،
ووراءَ كلّ نافذةٍ سماءٌ تبعثُ لِمَن يرصد موظفاً للجريمة،
يتاخمهُ
ويؤاخيه
ويكونهُ:
مشروع تَوحّدٍ ينفي الانفصال.

اثنان في تيهِ الليلِ وفي ألق النهار، حَذِرانِ من المراقبة،
يبحرانِ أبعد وأرحب من الغرفِ المتوحّدة،
يشكلان النبعَ،
هما ضفتانِ لنهرٍ حَفرَ منذ المياه الأولى مجراهُ العميق،
والقتلةُ فيهِ أصدقاء مثل مويجاتٍ تنتشرُ وتتعثرْ،
تنداحُ،
وتغطسُ،
تطوفُ
وتنسلُّ
من تحت الجسور. لكنها تمضي.
تتمازجُ كالعناصر وتتداخل. تتبادل الأدوارَ.

مكتبة الفكر الجديد

القاتلُ عميقُ المعرفةِ بالنوايا يَمزجُ الصورةَ ويكاثرها،
هناك يجثو متوعداً
خارجِ النافذةِ
وهناكَ يرصدُ أمامها:
ثروةُ الموتِ، آتياً من الماضي ولم يتعقلْ،
بيدهِ الصورةَ وأصلها، كزهرةٍ مزدوجة الرحيق،
مسمومة
ومثقلة
بالنوايا،
أو إن الأصلَ عاثر الحظِ
يستدعي، متوسلاً، طيفَ الجريمة.

مكتبة الفكر الجديد

رؤيا إبراهيم

تآخيتُ في الحلمِ مع إبراهيم،
سويّةً جاءتنا البشارةُ أن لا نذبحَ.
سبعة قرون انتظرنا ثمَّ صَعدنا إلى مكانٍ مبهم،
ثغاء الخرافِ فيهِ تنادي:
جئنا في رحلةٍ من الجنة،
دمنا ليس دمُ آدميٍّ،
مباركونَ نحنُ وُلِدنا في السماءِ،
أتينا نفتدي الخطيئة.

أريدُ، والدمُ يشخب هنا وهناك، أن أسردَ
وأمنحَ الشعرَ استراحة. أكتب العتمةَ التي لا تحتمل التأويل.
أمزجُ الألوانَ مثل دَهّانٍ أعمى
مُؤجَّر لليلٍ يلطّخُ النجوم:

ليسَ كلّ بُركةٍ حمراءَ بشارةٌ لذبيحة
والكباشُ حينما تتقافزُ خوفاً من السكينِ تغادرُ مكانها.
لا بلاد لها فوقَ الجبالِ

مكتبة الفكر الجديد

ومراعيها في الصحارى أضحت للنيران طُعُماً.

تأتيني رؤى إبراهيم مشوّهة وتعاود المجيء.
أنا لا أحلمُ بذهاب الغنمْ،
لكنّ الجنةَ تبتعدُ عني بهذا المنفى وباليأس الطويل،
تتهدَّمُ الطفولة والمدينة والأحبة ويُسَمّم التذكر.

رؤيا إبراهيم عن الطاعةِ لا تقنعني.
ذبحٌ من الوريدِ حتى الوريد.
كيفَ صعدَ الجبلَ وأصعَدَ ابنهُ:
غمامة كانت في رأسهِ وترَكَ في رأسي غمامة.

توجّهنا صوبَ أبوابِ السماءِ نحاورُ نذورنا،
وذبيحنا يحملُ الفأسَ والحبالَ مطيعاً صوت السماء
يبحثُ فيها عن نجمةٍ للرحمةِ
تزحفُ إليهِ مُعبّأة في خُرج الملائكة
لكنَ العينَ معصّبةٌ
والنفس مستسلمة.

صعدنا الجبلَ
نخفي السكاكينَ تحتَ المعاطفِ،
نأمل أن لا نَقتلَ

مكتبة الفكر الجديد

أو نُقتلَ
بحديدٍ ثقيلٍ يُعَدَّنُ وتُشحذُ بهِ السكاكين.

رؤى الطفولةِ بعيدةٌ عن الدمِ،
وفي السياقِ قصةٌ عن الرحمة؛
رؤى الطفولةِ مُخيِّلةٌ ثقيلةٌ كالجبلْ
لا أقدرُ أن أمنعَ إبراهيم من صعودِ الجبل،
تسلقتهُ بنفسي، مرات عديدة،
ولم يمنعني حرّاسي أو يوقفني الأمل
لم ينقذني أحدٌ في القمة.
الجبلُ عالٍ في صورة الذاكرة،
ممراتهُ حجرية والقمرُ يختنقُ في حبر السماء.

صَعدَ إبراهيم وعينا ابنهِ معصوبتانِ بقماش:
ذبيحةٌ موعودةٌ يرتجفُ لنحرهِ
فيؤجّلُ
ثمّ
يؤجّلُ
ويؤجّلْ
لفداحةِ الموتِ
آملاً أن تأتي البشارة ـ ملائكة من السماءِ
تضحكُ وترعى لهُ خرافاً وكباشاً أكلت من عشب الجنة.

مكتبة الفكر الجديد

رأيتُ إبراهيم فوقَ الجبلِ ينحني،
يفكّ وثاقَ ابنهِ، ويحلُّ العصابةَ كي يرى الولد النجوم
قال لي وثغاء الخرافِ يوقضنا: أولادنا
أكبادنا، ودم الآدمي بلون الجحيم.

رؤى الطفولةِ ليست مثل كوابيس الكهولةِ
تحدثُ في الآن.
راحَ إبراهيم ومازلتُ أحلمْ؛ أصعدُ وأنزلُ الجبلَ،
يراقبني ضيوفٌ ضربوا الخيامَ في الفلاةِ.
رجالٌ بكوفيةٍ وبعقال،
بلحى غليظة
مثل شوكٍ لاصقٍ، تختبئ فيها القنافذُ
يقدحونَ سكاكينهم بصوانٍ
بعيداً عن الحِملانِ
يذبح واحدهم الآخر.

مكتبة الفكر الجديد

صورةُ محمد

كم رَجلاً يَحتمِلُ أن يكونَ محمداً
كم محمداً يُحتَمل أن يكون محمداً
كم محمداً يدخلُ ويستوطنُ محمداً
كم محمداً ينشطرُ ليصبحَ محمداً

محمدٌ نائمٌ يَدخلُ في جُبّةِ محمدٍ
مَن يصادفهُ سيناديهِ باسم محمدٍ
يوهمهُ الآخرُ بالتكرار أنّهُ محمدٌ
ينسى اسمَهُ فينتحلُ اسم محمدٍ

الذاهب إلى المجهولِ هو محمدٌ
ومَن يعودُ من صحرائهِ محمدٌ
مَن يمكث معتّقاً بالزمنِ محمدٌ
ومَن يرى الساعة واقفة محمدٌ

تَتبادل الأبدانُ فترتدي محمداً
محمدٌ بطل السّردِ يواجهُ محمداً

مكتبة الفكر الجديد

يقصُّ على الناس سيرةَ محمدٍ
يمثلُ نفسهُ ويمثل غيرهُ محمداً

يلتقي بأعداءٍ كثرٍ فيديرُ المعاركَ ليطعنَ محمداً
يتكاثرُ في جلود الناس مستعيراً مخلبَ محمدٍ
هو الأسدُ والنمر والفريسةُ في غابةِ محمدٍ
يَحْبكُ القصصَ ويسرد الوقائعَ ليُدهشَ محمداً

مَن ينجبُ سيُنَقّي الذريّةَ ليتبارك باسم محمدٍ
يُسمّي ابنه ويوصي بالأحفادِ يُسمّونهم محمداً
ينكرُ الأسماءَ الأخرى ليؤكدَ أنه كان محمداً
محمدٌ فيهِ النطفة الميّتة تنمو فتولِدُ محمداً

في عزائه يبحثُ عن قرينٍ يجدهُ في محمدٍ
وفي ثورته الطارئة يقصدُ أن يقتلَ محمداً
الأسماءُ جميعها واحدةٌ هي من أرومةِ محمدٍ
تآلفتْ، وتنوّعتْ، فتغيّرتْ في صورة محمدٍ

ليست هذه تنويعات على كلمةٍ ميتةٍ هي محمدٌ
بل زهرة صبار تنمو في الفلاة لتُزهر محمداً
نسغٌ صاعدٌ ونازل لشجرٍ مبهمٍ زرَعَهُ محمدٌ
يُرتّبُ اصطفافها بنسقٍ مكرر كنسقِ محمدٍ

مكتبة الفكر الجديد

محمد قدرٌ راسبٌ كُتِبَ علينا وعلى محمدٍ
أن لا يكونَ أو نكون سوى نَسخ من محمدٍ
كثرةٌ يتكاثرُ وواحدٌ في الكثرةِ هو محمدٌ
محكومٌ عليهِ حكماً أن لا يرى غير محمدٍ

كلنا يرتدي ويُكرّرُ وجوههُ بقناع محمدٍ
محمدٌ يتشظى فيرى في المرايا محمداً
. . . . . .

وجهٌ في وجوهٍ تطلَعُ أينما ذهَبتَ وحللتْ،
تُخرجُها من المعلومِ، صُدفةً،
من دون قصدٍ، هكذا،
ويُخرجُها مَنْ يُريد لهُ وجهاً
يتلبّسهُ ليضيعَ فيهِ،
ربما يعلنهُ ليتباهى بهِ،
مناكفاً ما أُعطيَ لهُ،
يغادرُ
نفسهُ
بنداءٍ يسمعهُ مثل الآخرين
فيمنحُ نفسهُ مثل الآخرين.

مكتبة الفكر الجديد

كم يخسر في العبور إلى الضفةِ الأخرى؟
جدولٌ ضحلٌ بأسماكٍ ميّتةٍ
يخوضُ فيهِ؛
سهلٌ عبورهُ كشربةِ ماءٍ
مآلُ نبعهِ
ومَسراهُ
يعودُ
إلى
بُركةِ
محمدٍ
. . . . . .

مكتبة الفكر الجديد

كلمات عن الأشياء

ـ سُؤال

ماذا تصنعُ في هذا الوَقتِ من الليل،
أو في ليلِ الساعاتِ الحاضرة؟
تَمشي وَئيداً، ضارباً قَدَمَكَ في النومْ،
يَدَكَ بأوراقِ الصحفِ، مريضاً بالصّحوِ.
ماذا تَصنَعُ بِيَدِيكَ وقَدَميكَ الفائضتينِ،
وبِكُلِّ هذهِ الغيوم في رأسكَ؟
مَنزِلٌ واحِدٌ،
ومِنضَدَةٌ واحِدَةٌ،
وهناكَ غابَةٌ مُبهَمَةٌ للروح تجوسُ الأقنِعَة
تَزدانُ ألواناً
ونيراناً
وَرماداً
وطيوراً، تأخُذُ كُلَّ الهواءِ مِنَ الهواءِ، منكَ.
ماذا تَصنَعُ بالضياءِ،
بكلّ هذا الضوءِ المَبَرمَجِ، الموضوع في الضياء

مكتبة الفكر الجديد

لتَكشفَ منضَدَتَكَ السوداء
وقد وضَعْتَ عليها أكياسَكَ الفارغة؟

٢ ـ مِنضَدة

مِنضَدَةٌ لكَ؛ واحِدَةٌ فقط،
نَقلتَها من مكانٍ إلى مكانْ
وَضَعتَها في البيتِ، أو فوقَ العُشبِ،
أوقَفتَها بالصَوتِ؛
مساحَةٌ هيَ، قِيامَةٌ من خَشَبْ،
لا تضيقُ بالنوايا أو تَتَهَشَّم بالرعودْ
تَمكُثُ للأيادي
وللرأسِ المُسَجّى،
ربما بالحشراتِ، أو بالأيامِ زاحِفَةً تحملُ الوعود.

مِنضَدَةٌ، أو سَمِّها أنتَ ما شئتَ،
عاريَةٌ من الأسماءِ
مَرمِيَّةٌ في الرَملِ، في فوضى الرملِ الواقِفَة.
تَأكُلُ عَليها
تَكتُبُ
تَتْعَبُ
تَجمَعُ الكلامَ، ثُمّ

مكتبة الفكر الجديد

نُجلِسُ عليها أحلامَكَ فتتصارعان،
أو تتصافحانِ أحياناً.

هذهِ المِنضَدَةُ النهريّة
تتركها الآنَ لأحماضِ الغابة.
سَريرٌ قديمٌ بالحشائِشِ مغطى،
ربّما مِنضدَةٌ عتيقة الألواحِ تطلبُ بيوتاً حجريّةً
أقمتَ لها قرميداً، وحديداً، وشموساً.

أيّةُ شموسٍ للمناضِدِ
أنتَ تكَذّبُ بالكلماتْ

ـ طريق

طَريقٌ يوقفني هنا، في الحاضرِ، أفحَصُهُ: مَكانٌ للعُمر
ومقاهي كثيرة، تحملُ الأسماءَ والأشخاصَ والأيّام.
أحتَلُّ وحدي هذا الطريقَ، يَطلِقُ إعصاراً،
أفواهاً من الضياءِ في غيومٍ بعيدَه
بالوهمِ مُكرِّرَةٌ وبالطيور.
ذلكَ الطريقُ يسألني، أُنظّفُ رَمْلَهُ،
وأحتَمي بالقربِ من جسورِهِ،
أمسحُ عيونَهُ فَأرى.

مكتبة الفكر الجديد

واقِفاً في الطريقِ، يَرحَلُ عَنّي.
أمسحُ قدميَّ بِعُشبِ الطريقِ ليأتي معي
غامِراً بِنَشوَةٍ وهَدأة وغَفوَةٍ، فأُظَلِّلُهُ أشجاراً وأحراشاً،
رُبّما نُجوماً خشبِيّة.

٤ ـ الأيّامْ

الأيّامُ جميعاً،
والأحجارُ والأزمانُ،
جميعها، حاجات عن الأسرِ وخصائِص مُقيِّدَة،
آتِيَةٌ بِصَوتٍ ورنين.
أشباحٌ يَحمِلونَ أطفالاً وأقفالاً
وربّما وعولاً، تقترحُ بِحاراً مُكَرَّرة.

الأيامُ المُتّكِئَة على النافذة، أنظرُ مِنها إلى الريح
تَصطَدِمُ بالريحِ
وبالروحِ،
تَغسِلُ بالوهمِ أجراسَها، تَنشر الأزمانَ والأحجارَ
مزاياً وطبولاً.

الأيّامُ توقِفُ الريحَ فَأعصِبُ وهمها،
أرمي فيها أحجاراً وثماراً

مكتبة الفكر الجديد

أُبعثِرُ بها غلّةَ المكان جنوباً وفي الاتجاهاتِ
مزاياً وطبولاً.

الأيامُ تَستميلُ الغُرَفَ
والغُرفَةُ جميلةٌ بالنار
تُطِلُّ على الريحِ، والريحُ تَمسَكُ بِيَدي،
تغسلني بالموتِ فتُجَسِّدُ مزاياً وطبولا.

الأيامُ هادِئَةٌ، مُغلقَةٌ بالقِناع وبالأقفال
مُمَهِّدَةٌ بالمناراتِ الأوليّة،
لا بِجَسَدِكَ
الذي
تُريدهُ
مَزاياً
وطبولا

مكتبة
الفكر
الجديد

نباتات وأحجار

١ ـ

نباتاتٌ سحريّةٌ
ثلاث، أو أربع،
ربما أكثر. حجريّة المودّةِ تُضرَبُ باليدِ
ربما تُقطعُ بالغرباء.
هي أشجارٌ مُراوغةٌ لم يزرعها بستاني،
تنبتُ في حديقة الرأسِ وتروى بغيومه.
أشجارٌ، أشجارْ
أشجارٌ للكتبِ
أشجار الأزقة غير المثمرة.
نمرُّ بينها وندوسُ أوراقها.
أشجارٌ غير مُدركةٍ، غافلة، تعصبُ خليجاً معرضاً للخطر.
أشجارٌ غير مصقولةٍ، حصينة، غير محسوسةٍ، مؤذية،
مهاجرة بكلّ أفرعها ورطوبتها، بقامتها.
هذا الأخضر المتغيّر،
ملجأ خارج الماءِ، وفي اليابسةِ تفيضُ الصحراء
ونحنُ نحبسُ فيها

مكتبة الفكر الجديد

أيادينا محمّلة بالفؤوس.
أشجار، كما رأيتها، تُمنحُ للمياه في الأعالي، وأبوابها
مُثبّتةٌ بالرتاج،
نكررها غابةً
محسوسةً بالقيدِ وبأسودٍ للذاكرة العجوز.

أشجارٌ.
أشجارٌ كثيرةٌ في الأزقةِ:
هذهِ الملصقات النابتة على الجدار ممزقةٌ مرشوقة،
تشي بما في القلبِ من أزقة، ومن نباتات
سحرية للتذكر.

في صفيح العمرِ أشجارٌ مقصوفةٌ مكسورة الثمار
مرسومةٌ على أوراقٍ عريضةٍ: دعاوى هي للطفولةِ
مطلوبة للرجوع إليها،
وتلك الأشجارُ الأخرى، مَنْ يقتلعها،
ومَنْ يكسر صنوَ اليقظةِ فيها،
لتكون غافيةً تعصبُ خليجاً معرضاً للخطر
تلحّ للمجيء
دوماً
إلى
هنا

مكتبة الفكر الجديد

وهناكَ، في المقهى، عبر الشارع،
في الطوابق الخالية من العلاقة،
تأتي واقفة مزدحمة بالثمار الجبلية.
أشجار الأوهام فائضةٌ بأعمارٍ قديمة
مركومة في الرأس
حدائق
للرجوع.
أشجارٌ
للرؤوس جميعاً
موضوعةٌ في أكياس،
تلك النباتات الدمويّة القائمة في أوعية النقودِ
تُرافق الانتقال
بعيداً عن البيتِ وعن النوم الجميل
تُجهّزُ السُحبَ مثل القارات.
أشجار تأتي مضروبةً بعاصفةٍ
تضعها، هكذا، ذخيرةً
لِما تبقى لنا
من
البهجة
القديمة.

أشجارٌ مقطوعةٌ بالشمس الصغيرة،

مكتبة
الفكر
الجديد

وبالبعيدة. وتبدو صيفاً للأنهرِ، وصديقةً للطيور.
أشجارٌ غير مورِقة، محنية،
مخضوضرة بالأشنات
مركونة بالبحر الساكن للزمن
هكذا
بيدكَ
متدحرجة بالسحاب المقيَّدِ
ترتمي قريباً
في
خرابٍ
وفي رأسكَ
المنطفئ
بالشجر السعيد.

٢ ـ
مساء الخير.
ـ نعم
ـ لا
من فضلك
هل حان وقت الذهاب
إلى النباتاتِ وإلى الأحجار؟
ـ إلى أينَ

مكتبة الفكر الجديد

- إلى . . .
أين
هل حان أيضاً وقت الذهاب
إلى العناصرِ والحاجات الثابتة،
وأنتَ ترى كلّ هذهِ الحوانيت
والملابس
والبيوت الموضوعة للنوم،
هذه الضجة في السماء
تراها أحجاراً للزمن.
ولكن، هل هذا التداعي منضبطٌ بالوقتِ
هل فات الزمنُ
هل أنت جاهزٌ.
- نعم
- لا
تعال
هنا
على أية حال، أدخل.
هكذا إذاً، أنا لا أعطيكَ ثباتاً
مقطوع القدمِ مرة، ومرةً
مقطوع الحجارةِ بالرماد.
حجارة السماءِ ونبات الاستغاثة.
- ماذا عليَّ أن أفعلْ

مكتبة الفكر الجديد

ـ أين يمكنُ أن أذهبَ،
إلى البحر
في الخلجانِ المزدحمةِ بالأعشاب
في الصحراء المُعشّبةِ بالأوهام.
ـ أين يجب أن أكون
ـ أين ذاهب أنت
ـ أينَ أنا ذاهبٌ
ـ ومَنْ يقرعُ
مثنى، ثلاثاً، أربع مرات على تنوعات دمي
أينَ مرآتي
أينَ هو البيتُ المسوّر؛
البحر الأليف
الطّخهُ بما فيَّ
مِن صحوٍ
متبوٍّ
أين

مكتبة الفكر الجديد

عودة

فجأةً، توقِظُني طَرقَةٌ،
رُبَما أسقَطَها الصَحوُ على نَسيج نَوميَ الضَحِلْ،
تكشِفَ لي، أو لِتحجِبَ عَنّي الحِكمَة.
حِكمَتي في تكاثرِ الحُلم،
يَستَمِرُّ بِهِ طوافي أعواماً
فَأبصرُ تَوأمي يَجولُ في البراري،
يَحملُ اسمي، يحملني،
واضِعاً يَدَهُ ـ يَدي ـ على كَتِفِ الضّباغْ
مُتَحَدِّثاً مَعَ الأُسودِ والدِبَبَةِ
مُغتَسِلاً بِعُيونِ المياهْ،
يَغسِلُني، وَيُعَطِّرني بِأعشابٍ بَريَّة.

في سَمائي القَريبَةِ أصواتٌ تَدُقُّ
على صَفيحَةٍ مِن رصاصْ
تَحجِبُ عنّي مَنافِذَ الحُلمِ، والغَسَقُ في حُضني يَتَسَمَّم،
فتغادر من فَضائي حِكمَةَ الفضاءْ.

مكتبة الفكر الجديد

عِندَما يغلِقُ الليلُ عَطاياهُ بِأقفالٍ مُحْكَمَة
لا تردُّني إلى النَومِ أعشابُ الجبال
فَأجِدُ توأمي، مَطعوناً قُربي في السرير،
جُثَّة يُقَلِّبُها الموتُ، فَتَتَهمني بالجَريمةِ
وُجوهٌ أعرِفها؛
تَتْبَعُني ضاحِكةً
إلى أقاصي المُستَحيلْ.

هذا الليلُ المُكَبَّلُ يُسْقِطُني في كُهوفِهِ
فَيَنأى النهار عني، مُبعِداً متاعي
وما تَكاثَرَ فيَّ مِن أحلام.
كَيفَ أستَدِلُّ على الطُرُقِ،
نازلاً صاعِداً، قارئاً أسماءَ المُدُنْ؟
ومِن أيّ حدودٍ سأعبرُ
لأحمِلَ مَعي الفَتى
الذي ماتَ في سَريري
وفي صَدرِهِ
أوهامٌ
وَرصاصْ؟

مكتبة الفكر الجديد

الوليمة

سيأتي الليلُ هذه الليلة أيضاً،
عليّ أن أُسوّي غطاءَ المائدةِ
مُرتّباً عليها للضيوف القادمينَ آبار الزمن،
كلّ بئرٍ عميق في سِرّهِ؛
كتابٌ من الماضي يُمجّدُ سيرةَ السلَف.

في هَدأةِ الليلِ تهاجمني أشباحٌ
وذئابٌ وأجسادٌ مضمّدة،
ثم يأتيني شعبٌ مُفوّهٌ بالنصيحة
يَمرّ عليّ.
أصدقاء وغرباء، في حُزَمٍ كقصبِ المياهِ
جرفتها زحافاتٌ من الماضي،
يعاتبونَ قلبي الذي تركتهُ
في البراري يتجوّل.

حدائق الأسلافِ مشبوهةٌ
بالمياه الباقية،

مكتبة الفكر الجديد

مبحرةٌ في مسافاتٍ وإشارات
يكدّسونها من الماضي:
أطفالٌ وأسلافٌ ذوي مخالب
قابعونَ في قعر الجمجمة
متلفعون بأجداثٍ
يجعلوني أحلم الليلةَ أيضاً
ما إذا كنتُ أُسوّي جثتي،
أو أُناديني من الطواف.

هذهِ الليلة
وفوقَ منضدة الوليمةِ
سأقرعُ طبولَ الماضي
ليهربَ
زوّاريَ المبتهجونَ
من الضجيج.

مكتبة الفكر الجديد

زيارة

كلّ صباحٍ
والنومُ يُثقِلُ جفني
يأتي إليّ هذا الطائرُ المبهم،
ينقر على الزجاجِ، إذا ما كانتِ النوافذُ مغلقة
والستائرُ مسدلة،
ينقرُ خلفها واقفاً في الثلجِ
الذي يُغطّي باحةَ الدارِ،
ويواري معه أيّامي.
يجيءُ الطائرُ إليّ عاتباً،
لا ليغنّي
بل ليتحدّث
عن الجبالِ التي قطعها
والمدن التي رآها
والناس الذينَ غنّى لهم
ليسكبَ ليَ الرائحة
واضعاً أمامي
شريطاً من تداعياتٍ قديمة

مكتبة الفكر الجديد

هكذا
يَسرقُ منّي دوماً
هذا الطائرُ المبهمُ
بجناحيهِ
الهواء

مكتبة الفكر الجديد

زهرةُ النهاية

(١)

تَمضي بيَ غيمةٌ يسوقها مَن لا أعرفهُ،
يسوطها، منذ تلكَ الأزمان، تنينٌ
أو يقودها ثورٌ سماوي.
عندما أتساءلُ عمن أتى بها
يفسّرُ لِيَ مسارها مناقبيٌ،
ربما مجتهدٌ في الريحِ
وفي الروح،
يفسّرها قَدَراً.
طاحونة تطحنُ الناسَ وتغذيها منذ العطش،
أو يقول أنها تمرُّ على حدائق الله
تسقي الورودَ
وتهيئ لكَ زهرة.

لكنني أحاولُ التآلفَ معها،
أحَمّلها وجوهاً، وفي ثناياها أتشكّلُ
زهرةً مُرّة تعافها الناسُ

مكتبة الفكر الجديد

فأغرسها في رمادي.

(٢)

كلّ يومٍ تبرقُ الغيمةُ وترعدُ
بينما لا حديقة لي
ويدي لا يبللها المطر.
لا نهرَ لي
وسواحل بحاري مغلقةٌ
أحلمُ بالجبال تفجّرُ الينابيعَ
وبالحقول تجتذبُ البهجة
فيطرق بابي نذيرٌ:
خُذ متاعكَ إنهُ آخر الليل
وآخر الغيم، وما يحيطُ بكَ موحشٌ،
مكانك فوقَ سطح الصفيح، بينَ الشبهاتِ،
وأنتَ مازلتَ تتوهّم
بزهرةٍ تنشرُ لكَ عطاياها.

(٣)

الغيمةُ صورةٌ، وما نمنحها مِنْ هيئةٍ نقولها بالكلمات
الكلماتُ معانٍ نُؤَوّلها مثلما نستطيع،
أقنعةٌ نرتديها تعَرّفنا في المرايا
على بعض وجوهٍ تنطفي

مكتبة الفكر الجديد

عندما ترحلُ عنها الضياء
لتسرد سيرة حقل مشبع بالجفاف.

(٤)

أعرفُ أني أجولُ في رمادٍ وفيهِ أتَشَكّلْ، لكنني
أجهلُ ميراثهُ ـ أيَّةُ نيرانٍ توعدني بالتطهّر
تمنح الكثبانَ المحروقة زهرةً عطشى.
أجهلُ مَن رماها
مموّهة
تثيرُ العداوةَ
تَضدُّ الغيمةَ والرمادَ:
هكذا هي خاتمةٌ النهايات
تلغي الوعودَ،
وكلّ ما في الوعودِ من معنى
يذهبُ إلى الحريق.

(٥)

بهذه الوردة التي تَسقطُ من يدي، قبلَ أن تَذبلَ،
يَأتي بستانيٌّ، بيدهِ فأسٌ يقطعُ الجذور،
ثُمَّ ينثرُ الملحَ على العمرِ،
يتعثرُ، ويتذكرُ،
ليُذكّرني بالاحتماءِ وبما سيأتي وبما لم يأتِ:

مكتبة الفكر الجديد

بالعواصفِ تُرَوِّضُ النقائضَ
وتسوّي التعارضَ.

(٦)

هذهِ إذاً هيَ النهاية ـ نهاية الوردة الآملة بالتفتح،
دودةٌ بيضاءَ صغيرة تحفرُ في قفا الجُمجُمة،
تُشَيِّدُ بيتاً للزمنِ تسكنهُ الناسُ.
سَكَنَتهُ، طبقات فوقَ طبقات.
ضوءٌ باهرٌ يأتي؛
نفقٌ
يَبدأُ
يكبرُ
يفقسُ في الغيبةِ
بيوضَ الغياب.

(٧)

هذهِ، مرّةً أخرى، هيَ النهاية عندما تنتهي النهاية،
ضوءٌ أَلِقٌ يعشي، أو ظلامٌ ينشرُ أجنحته
يريدني، يسحبني إليهِ
فأذهبُ، أو إنني أغورُ بِهِ.
مُعَلَّقٌ في تلك النهاية
أرى الخاتمةَ

مكتبة الفكر الجديد

إيذاناً بالرحيلِ يبني سُلّماً في الأبديّةِ.

(٨)

بهذهِ الوردة البيضاء التي تذبل في يَدي
لا جدوى من حدائقي خبير بالمياه
يمنحني التأملَ.
أقفُ قبالة كثبانٍ خلفَ كثبانٍ
تولدُ فيها دودة تحفرُ في الأبديّة
تنسجُ لغزاً يحيطُ بي،
يُفَسِّرُ الغيابَ ويأتي بالتمائمِ توعدني بالمواعيد،
لكن ما أحرثهُ في ضجّة الميراثِ كسادٌ
وحصادٌ خليطٌ من غلّةٍ وزؤان.
مخادعاً سيرةَ الغيمِ والرمادِ أعرفُ
لا جدوى من حدائقيّ خبير بالمياه
أن يفتحَ زهرةً،
والغيمة تمضي
ناشفةً

(٩)

ما بينَ وردتين ـ بينَ امثولةٍ وامثولة ـ عالمينِ
أو عوالم تتناقضُ
والعوالمُ فصولٌ حينَ تبدأ تنتهي،

مكتبة الفكر الجديد

كحلقةِ ساحرٍ يقرأ فيها الحظوظ
في سِفرِ رماةٍ إنْ أصابوا
ينسونَ الضحيّة
في طيّات الغيوم

(١٠)

العمرُ دورةٌ في الريحِ، وريحُ الشراكةِ مفتاحٌ
يقفلُ هذا الزمن الذي ننتظر
أن نشيخ بهِ ونتقاتلْ.
واهمون في المعابرِ
نظنُ أبواباً ستفتحُ
ونلتقي بها
مع الغائبين

(١١)

نُفسّرُ عاصفة الصحراءِ غيمةً،
حدائقنا في الرأسِ نحتمي بها،
تزرعُ أنتَ فيها
وأقلعُ منها ما أريد.
حُماةُ الحقولِ نحنُ، في حروبٍ صغيرة
ننهمكُ، لا نعرفُ أن نسمّيها:
نحن رماةٌ يُصوّبونَ محبتنا للتنكرِ

مكتبة الفكر الجديد

مرةً خشيةَ الفسادِ
ومرةً خشيةَ التآلفْ

(١٢)

في يدكَ زهرةٌ تذبلُ وتينعُ بالترَفُّعِ
وفي يدي زهرةٌ تينعُ وتذبلُ بالهذيان

(١٣)

معاً نسيرُ في غيمتنا،
نُؤَولها رماداً أو زهرةً، نجسّدها
ألفةً نتخاصمُ حولها،
نضفي عليها معانٍ بالكلمات.
هذا ما يُرَوِّضُ الضباعِ
ويُدَجِّنُ الأسود، وما يجعلُ الثعالبَ تطاردُ الضحية:
غيمة جاءت بها صُدفةً، تمطِرُ الرمادَ
لكننا لا نعبأ بها
وربما
لا نريدُ
أن نراها ترتحل.
دودة تحفرُ في قفا الجمجمةِ
غيمةً من صخر.

مكتبة الفكر الجديد

انتظار

عَرِفنا، نحن المنتظرون،
قطار الثانية صباحاً سوف لن يأتي،
لن نذهبَ إلى النومِ
ولا نخاصم مُرَتِّبَ الزمنِ.
أخطأ اليومَ في ميقاتهِ،
يُرَحِّلنا إلى الماضي ويوقفنا هناك.

نحن، ننتظرُ الميعادَ، غرباء عن بعضنا
نرى وحشاً ينزلُ الميادينَ في كلّ ليلةٍ
يتجول بينَ المباني
يهدمها،
يُغيِّرُ المسارَ، يُخَرِّبُ الطرقَ،
ويبعثُ فينا التوَجّس
ونحنُ ننتظر.

يقيناً ذلك القطارُ سوفَ لن يأتي
ومَن بهِ أضاعَ الأماكنَ وضَيَّعَ نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

اختفى ذلك الرسولُ
بين «اوست بانهوف» و «شيلنغ بروكه»
ربما توقفَ، أو اجتاز «غوبنر شتراسه»
صوبَ ميدان «مارشليفيسكي»:
هذهِ أسماءٌ في الصحوِ نتعرّفُ عليها،
لكنها في العتمةِ تتبدلْ
تأخذنا ذخيرةً، فيغيّبها النسيانُ فينا
لنذهب متفرقينَ في اتجاهاتٍ مبهمة.

في بيوتنا القديمةِ، والمسافاتُ قصيرةٌ، كنّا نختفي
بين الأماكنِ فتضيّعُ فينا الأماكنُ نفسها
نحتفي بها وبالأسماء وبالسماءِ
ترسلُ لنا الإشارات
كي نختزن الطرقَ
ونمضي عائدين.

نحنُ ننتظرُ هنا
ويحدثُ دائماً بعدَ منتصف الليلِ
أن يكونَ السفرُ والمعرفةُ مستحيلاً
طالما الأسماء مبهمة والضوء يخبو،
عيناكَ لا ترى،
ثمَّ يلمعُ وينطفئ.

مكتبة الفكر الجديد

دورةٌ للتطبّعِ
تحركها ماكنة الزمن:
نُضَيّعنا ثُمّ نُعَرّفنا على الوجوهِ.
لعبة المخاوفِ هيَ
ونحنُ نحملُ نعشَ الاحتفاء بالمسيرة المبهمة
في المكان الذي لم يعد
هو المكان

في هذهِ الليلة، في الثانيةِ صباحاً،
يفقدُ القلبُ دليلهُ
بينَ ركامٍ وأماكن انمحتْ فيها الذاكرة.
كتلٌ وحَجَرٌ، مُغُرٌ وأنفاقٌ في اتجاهٍ مخالفٍ تمضي
تُشَيّدُ مغاليق الغربةِ.
بيوتٌ نمرّ بها، لها عيونٌ تتحرى
وتراقبُ غرباء يرتدون الشكوكَ تغيّرت حقولهم
مثل شياهٍ أضاعوا القطيعَ
بين الذئاب.

مكتبة الفكر الجديد

ليلة الألفة

نخرجُ الليلة لنموّه بها المسافة ما بين جلودنا
نشكك فينا التحوّلَ ونعتقد في الثبات.
نُروِّضُ في العُتمةِ الاختلافَ
لتهدأ العداوة بيننا برهة:
نحن مهندسون يتداولون المعرفة
يغيّرون المساحة
منسيّون من أنفسهم
مندهشون من المقارنةِ ما بين المعابر،
عندما يتلمسُ كلٌّ قلبهُ المتيبس
يخسرُ الرهان.

أخرجُ كلّ ليلةْ
من الضبع الذي فيّ، وديعاً، أتحرى
عن كهفٍ يستمعُ إلى ما يشخبُ في دمي
من زهدٍ وذهول،
هادئاً أكونُ، كقلعةٍ خرّبها الغزاةُ
ورسموا على جدارها الوشمَ

مكتبة الفكر الجديد

ثمّ حفروا في مداخلها الألغاز.

كلّ ليلةٍ تعاند عتمتها ليلة أخرى فتنكرها:
ينابيعها مختلفةٌ
إشاعاتها متغيرةٌ
أقفالها احتماءٌ
معاييرها مخفيّة
عليّ أن أكشفها، وأبحثُ في جيوبي عن مفاتيحٍ
تطلقُ المياهَ وتفسّر الإشاعات.

كلّ ليلةٍ تستحضرُ الذئابَ،
تعوي، وتفتح وحشة البوادي
مغروزة بالأسنان، أتلمسها فتجرح الوضوح،
هي العداوة أو الخيبة العاشرة،
أو ربما في العواصفِ محفوظة،
أقرأ رياحها السامة مفسّراً معانيها
لكن أسماءها تتبدل،
نريد أن نتذكرها فنحصيها، نشيّدها في المخيّلةِ،
تُبعدنا في الليل عن الألفةِ، ثمّ نهدمها.
حيثما يضيع الأثر.

كلّ ليلةٍ مختصرة تحلُّ غير مدعوّةٍ،

مكتبة الفكر الجديد

توعدُ بالزهد وبالذهول، أقارنُ بها الشهوات.
في الزمان الطويلِ والشمسُ مطفأةٌ
أبدِّدُ الأشياء وأُموِّهُ الهجرةَ
أملكُ المكانَ
أشكّلهُ مثلما أريد.

كلّ ليلةٍ أخرجُ من زوادتي ليالي سابقات
لأضفي على مسمياتِها ذائقةً
ولأوصلَ المياهَ إلى كهوفِها، أشيّدُ أبنيةً
مرشوقةً بالألوانِ، مُوَزِّعة، ألمسها أحياناً،
أخالها ركيزةً، أو عداوة، أو خيبة،
شراكة في السماءِ محفوظة
أقرأُ رياحها السامة متلمساً معانيها.

كلّ ليلة تتحايلُ عليّ الأسماء
لكنَ الأسماءَ في الليلِ تتبدلُ وتجفُّ الينابيع،
نريدُ أن نتذكرها فنحصيها. نشيِّدها في المخيلةِ ثمَّ نهدمها.
كلّ عاصفةٍ في الليل مبهمة المودَّةِ تطردُ ناسها
تبعدنا عن الألفة
فيضيعُ الأثر.

كلّ ليلةٍ تقتادُ ليلةً مثيلةً لها،

مكتبة الفكر الجديد

تخفي العلامات الظاهرة،
فيما أتجوّلُ في حيرتها
يخوضُ ظلي في الثلجِ القديم.
يتبعني ذئبٌ عجوزٌ
يلتفتُ ويلعقُ أسمالهُ بملابس الليل الممزقة

كلّ ليلةٍ تولدُ ليلةٌ.
يخطو في ملابسها لصٌ خائفٌ من اكتشاف الأثر
يمسحُ الدمَ من الثلج الذي نزل الليلة
ليغطي الثلج القديم.
ذئبٌ في بصري
يرى النوافذَ المضاءةَ،
يحتمي بالألفة البعيدةِ،
متخيلاً النارَ موقدة:
في البيوتِ غرفٌ مُدَفَّأةٌ مضاءة
مدعوةٌ فيها المواعيدُ إلى النكوص.

كلّ ليلةٍ تخفي قمرها وتطفئ نجومها
ترمي عليّ شباكها
تقول لي
أنتَ بحّارٌ

مكتبة الفكر الجديد

من غير سفنٍ تمخرُ
في حقلٍ فسيح،
تتعثّر بالأحجار وتحفر الخنادق.

كلّ ليلةٍ مشدوداً على صخرتي،
أحفرُ مثل خلدٌ يعافُ الضوءَ هنا وهناك،
في الكهوفِ وبين القلاع،
في الأماكنِ وبينَ الأماكنِ.
مهندسُ للنجاة،
بَنّاءٌ يُعَمّرُ غرفةً.
أتوَهّمُ غرفةً ـ مكعباً من الإسمنتِ،
صافي النوايا أضَعُ فيها ذخيرتي القليلة.

كلّ ليلةٍ ثمارها فاسدةٌ
أضيء مصباحاً
لأرى نفسي في مرآةٍ صافية الوميض
أتحدّثُ مع ذئبيَ العجوز الذي ألِفَ الناسَ.
فَقَدَ أسنانهُ
وألغى طبعهُ المتوحش

كلّ ليلةٍ أخوض حرباً وأصنعُ سلماً،
وأنا مثقلٌ بلغزٍ

مكتبة الفكر الجديد

يأخذني أينما يريد؛
إلى مجرّةٍ سوداءَ
لم يبدأ صباحها بعدُ.

مكتبة
الفكر
الجديد

حالات شاعر

(١) أنا شاعرٌ مُحَمَّلٌ بوباءِ الآخرين،

عرضوا عليَّ في صُوَرٍ من ورق، وأنا أبحرُ في مياهٍ غافية، طيوراً مهاجرةً أضاعَتْ بوصلتها على حافةِ القارات. في الخرائط التي أمامي بقعٌ زرقاء. مَسَسْتُ فيها بكفّي مياه المتوسطِ: لم تكن مُلوَّثةً بالنفطِ وبفطائس الأسماكِ، والأطلسيُ مُرتهنٌ للأعاصير.

على النقيض مما فَسَّروهُ ـ أبصرتُ جزراً مَسحورةً ومُدناً تتلألأ.

قالوا لي وأنا في بحر السماء: قُمرةُ الطائرةِ أمينةٌ بالحراس وأنتَ ذاهبٌ إلى البحر، فوقَ البحرِ، ومتى ما ستصلُ يأتي إليكَ خدمٌ وحاشية.

قالوا لي مُؤكدينَ مجدداً: ربما واهمٌ أنتَ، ما تلمسهُ هوَ أرنبة أنفك. لماذا قرأتَ كثيراً عن الماضي وتخيّلتَ ونسجتَ كثيراً. لمَ شاهدتَ على الجدار الأبيض المشعّ طفوَ جنودٍ قتلى على الماء، وفي الماءِ سفنٌ وغوّاصات، وفيهِ عَصْف أعاصيرٍ وحَرَس حدودٍ وكاسحات ألغام ـ وسفرَتُكَ سعيدة.

مكتبة الفكر الجديد

هكذا ستعود إلى الماضي، إلى الحلم وإلى المخيِّلة. ترى فيهما العجائبَ والغرائبَ لأن المدنَ تضيقُ وما في البعيدِ يلوحُ مُجَرَّد كهرباء تمسُّ عينيكَ بألقٍ شديد.

أنتَ شاعرٌ يضيقُ بكَ المكانُ فتنبذهُ وما تراهُ فيكَ تهربُ منهُ فيَتعكّر. أنتَ غيركَ، تبتعدُ وتبتعدُ حتى تنأى عن سماع صوتكَ. تنتحِلُ قناعَ المُؤولين.

(٢) أنتَ شاعرٌ يهرب بثيابه،

لم يَرْثِ المَلِكَ، في مَوتهِ هجاه. جئتَ واهناً تتنَقَّلُ هارباً من الرملِ. قطعتَ الصحراءَ العربيةِ. وقَفتَ أمام الماءِ تنفضُ عنكَ وعثاء السفر. تحنُّ إلى مساحةٍ من العُشبِ تلمسهُ لا إلى واحةٍ مُتخيّلةٍ بين الرمال. تجف الواحةُ، وتحفُّ بها العقاربُ فيَهربُ منها الحدأة.

الزمنُ مقصٌ شاحِذٌ ذراعهُ، وذاكرتكَ أوراقٌ ممزقةٌ يذريها العمرُ، تتقافزُ فيهِ الضواري وفوقها العقبان تتبع الأثر. ما من خلاصٍ من الأشباح، والأرض الأخرى مجهولة. ما من خلاصٍ في الكلماتِ والسكين على الرقبة.

مكتبة الفكر الجديد

(٣) هو شاعرٌ لا يعرفُ إلاّ الصحارى،

ميراثهُ الشوكُ، والعُشبُ أحياناً. ذائقتهُ شمسٌ في كبدِ السماءِ.

وقفَ أمامَ البحر الصاخبِ لا يعرفُ منهُ إلاّ الماءَ وراءَ الماء، وبمقدوره، أن يُفَرِّغَ بالدلاءِ هذا السائلَ، حتى القاعِ. ظنَّ الأمواجَ في البحرِ حُجُباً والسفنَ مضارب لجوءٍ، والزبدَ رَغوَة مصابٍ بالصَرَع. ثمَّ تخيَّلَ ما في قلب البحرِ أحجاراً ـ رماها مسافرونَ غابرون.

ويُريدُ أن يرميَ في البحرِ حجراً، يطلبُ الاحتماء، وينوي الهجرةَ.

وفي انتظار نداءٍ مجهولٍ من الأجدادِ عَبَثَ بالرملِ، ونتفَ الأشناتَ، ثمّ نَظّفَ حذاءَهُ من الوسخِ العالقِ بهِ. وفي قلبِ صَدَفَةٍ قريبةٍ من الجرفِ عَثَرَ عليها (ظَنُّها فاكهةً) غَرَز رملةً، ما فتأت الصَدَفةُ تحوكُ له، من ألَمِها، لؤلؤةً باردةً، يخرجها بسكينهِ، ثمّ ينقدها ثمناً ليركب الموجَ إلى ساحل مدينةٍ أُخرى يراها في المنام.

لكنهُ قبلَ أن يَصِلَ يأتي الطوفان.

مكتبة الفكر الجديد

مشروع روميو

طعنَ روميو في السنِّ فأرادَ أن يُغَيِّر اللعبة. بائعاً يكون، أو مُرابياً، حاكماً أو كاهناً... الخ. يتوهّمُ الطريقَ لهؤلاء سالكة، ليُعَبِّدها بين الجحيم والجنة. يتذكرُ طرقاً كثيرة مشتها الناسُ إلى المذلة، تناست أمنعة الحبِ أو أخفتها في صناديقها المقفلة. يريدُ ممراً بينَ الحواجز والطرق المغلقة فيتّجه صوب الهناءة.

كم وجهاً يَحتمِلُ هذا العجوز؟
كم قلباً يراكمُ في قلبِهِ؟
كم من نشوةِ الاستعادة تزيل عنهُ الصدأ؟

يَسترجعُ روميو الأحداثَ كلها؛ كان مُصَوِّراً
في الحربِ بين الجبهاتِ، لكنهُ جريحٌ بالأحقاد.
روميو اسمٌ في أسماءٍ عديدة. أبٌ يمنحُ بناته للعاشقين.
عاشقٌ لنساءِ الآخرينَ.
مرابٍ يُوظِفُ العواطفَ، يعرفُ الحسابَ فيُغيِّر اللعبة.

أول العاشقينَ روميو، قناعهُ يباعُ في المدن،

مكتبة الفكر الجديد

ساحرٌ بمرآتِهِ المُظلمَةِ يَستحضرُ الماضي،
يَعْزِمُ بسحرِهِ المُحبّينَ، يَجعلهم شجراً بلا ثِمار.

يكبرُ المرءُ العاشقُ فلا تناديهِ الصبايا. دَفعَ العمرُ سيفهُ إلى الغمدِ، بلا يدٍ هوَ ليستلَّ النصلَ، أو يداهُ ترتجفان. عاشِقٌ في الماضي تعلمَ الخيبة، تعَلّمَ الحكمة؛ نمرٌ بلا أسنانٍ، لا يَعضّ الفريسة. يملكُ المناعةَ وله الشفاعة، يستقصي حَجَرَ القلوب.

يُعَلّمُ بلقيسَ لعبةَ الغوايَةِ لتسرقَ من سليمانَ تاجَ النبوّة.

روميو المُسِنُّ يُجَهّزُ هودجاً لقيس، وحصاناً مُطهّماً لفرهادَ، يمضي بهما إلى مكة وخرا سان. لكن الوقتَ يدركهما والقدر يسقيهما المَذلة.
يوصي قيساً ليرحلَ من الأطلال بنبالهِ إلى المدينة، يشّد الوترَ صوب القصور، يفجّر الهناءةَ لأنّ اليتمَ ذخيرته.
فرهادُ يَعوي في مجدِ كسرى وخِوانه من حرير، داعياً قيس وروميو الحزين إلى المأدبة، فيمضي إليهِ العاشقونَ ملوّحين بالخيبةِ يقتنصون الغنيمة.
في خيمةٍ، في القلعةِ الحصينةِ، على سجادةٍ من تبريز يجلسُ الخائبون. أرواحٌ معذبة؛ سَقَمُ الجسدِ، سلٌّ في الصدرِ وسُمٌّ في الشرايين، يعاتبون الله في العشقِ. حواريون طُردوا من الجنة وتلطّخت جباههم بعار المحبة.

كانتِ المحبةُ منذ عهدٍ موعودةً للموتِ والقلبُ يتأجّج.
مَلّتِ المحبّةُ من الأضاحي وغيّرت الذخيرة:

مكتبة الفكر الجديد

أن تكسرَ السكينَ وتشعلَ فحمَ الشتاء،
وما تبقى من رمادِ الحبِ تذروه للعاصفة.

لو عاد الزمانُ لتركَ قيس ليلى وقتلَ أباها،
ضارباً في صحراء الجزيرة، من خيمةٍ إلى خيمة.
لو عادَ الزمانُ لعَبَثَ روميو بجوليت، وأحبَّ غيرها،
أشعل فرهادُ النارَ فوقَ الجبلِ
وطرَدَ شيرينَ ـ من البردِ تتجمَّد.

فيلقُ الحبِ، بعدَ الآنَ، يُجرِّدُ السلاح ويطلق.
وليسَ كلّ دمٍ يُسفحُ بحيرة للتوبة.
العاشقونَ تحتَ الشرفةِ يحملونَ السلالمَ،
يصعدونَ الغرفَ ليسطوا على اللذّة.
العاشقونَ في الباديةِ، حَرَسٌ قلوبهم تصدأ، يشترونَ النساءَ،
وملكُ كسرى ملفّعٌ بالسواد يخبئ تحتَ عباءتهِ جارية.

قيسُ العجوز ينتحلُ روميو، مُطفئاً النار يهربُ من القبيلة.
طاعنٌ في السنِّ، يحاول ويحاول العشقَ فيستقيل.
كمْ من الحبِّ يسفحُ ليحسّ بنبض قلبه؟
كم سيغني تحت الشرفةِ الجديدةِ لتسمعَ جوليت صوته؟
لو عاد الزمانُ، لو خَسِرَ الرهانَ بليلى مجدداً،
لذهَبَ إلى المدنْ،

مكتبة الفكر الجديد

يمكثُ فيها، ويُخطط،
يعاتبُ روميو الجديدَ ويعاديه.
مَن فقدَ المحبَّة ينادي الخائبين إلى القتال.

مكتبة الفكر الجديد

المقبرة

عائشة، أو فاطمة، تَرى حُلماً: تغرزُ الرَفشَ في التراب.
ملائكةٌ بيضاءَ مُدثّرَةٌ تقولُ لها: «محمدٌ في الترابِ،
والترابُ مآلُ كلّ خَيبَة.
انتظري المنتظرَ
سيأتي،
ومن كلّ حَبّةٍ يُطلِعُ روحاً عَطِرة».

. كلاّ.
جِدالُ الملائكةِ حَقٌّ، ورفضُ المشيئةِ عَدْلٌ
لِمنْ اكتوى قلبهُ
وانتظرَ طويلاً عودةَ الغريب.

تدورُ الدوائرَ المُغلَقةَ عائشة، أو فاطمة، بِمشْيَتِها الكسيرة
عباءتها السوداء في الريحِ تطير
وروحها تخفقُ مثلَ طيرٍ ذبيح،
أو مثل رايةٍ في موكبِ عزاء.

مكتبة الفكر الجديد

مُحَمّدٌ، كما انتظرَتْ، رهينة العمرِ،
وديعة الأرضِ يَطلَعُ مبتسِماً؛
ضبياً في البراري
وحَقلَ رُزٍّ يَصعَدُ المياهَ
داعياً الناسَ إلى الوليمة.

فاطمة التي تحبّ نبتةَ الريحانِ في أصص الصفيح
وتَشمّ عطرها عندَ الجبين
تَعمّقُ الآنَ مسحاتها في الترابِ الغريب.
ادفعي بساقكِ النحيلةِ في الأرضِ اللئيمة،
صوتُ النجيلِ تحتَ شُفرَةِ الحديدِ مكتومٌ
وفي أذنيكِ صدى الذي
أضاعَ قلبَه.

هنا لا يمكنُ أن تكونَ الحفرة
وهنا لا يمكنُ أن تكونَ المقبرة
وكلّ هذهِ الأكياس ريحٌ مُعَبّأةٌ بالأمنيات.
لا سَكن بعد الطوفان
لا بيت بعدَ الضياع
لا راحة بَعدَ العذاب
ربما محمد، خَلِيّة ضوءٍ،
ذهَبَ جوّالاً في الممالكِ، يَعرِفُ

مكتبة الفكر الجديد

الطُرقَ والمسالكْ،
تَوَضأ وصَلّى
رائياً في الجنوبِ لونَ الدَمِ،
وثقوباً في الجمجمة.
معصوب العينينِ
طافَ بالموتِ وتَلمّسَ ديدانه.

عَمّقي المسحاةَ، يا أمّ،
واغرزيها في القلبِ
هذا الزمانُ، بعدَ عقودٍ من الحِرقةِ، رديءٌ
يطوي الوجوهَ ويسرقُ الدِفء ثمّ يُعَرّي العظام.
تحيطُ بكِ مملكةٌ، تآخى الناسُ فيها والضباع.
كيسكِ مملوءٌ بالوعودِ تجمعينها؛
هنا الترقوةُ، وهنا الحَقو،
وها هوَ الذراعْ. وهناكَ قحف الجمجمة.

لا تعَمّقي المسحاةَ، يا أمّ،
افتحي كيسكِ المحفوظِ كلّ هذهِ السنين
لتلكَ الروح التي تنام،
ثمّ تستيقظُ على نجمةٍ؛ إشارةٌ هيَ، وهيَ بشارة.
بإصبعها تدَلّلُ
هنا

مكتبة الفكر الجديد

وهنا
وهناك
ليُعادَ الحَفْرُ
والحَفْرُ
على بثلةٍ، قد تورقُ
في الرملِ زهرة

مكتبة الفكر الجديد

مَشهد

ليسَ كما في الماضي وقد اعتدتُ أن أنامَ طويلاً ؛
مَسَّني الخوفُ في منتصفِ ليلةٍ،
باغتني مِنَ الغيابِ
حاملاً وعيدهُ ووصاياه:
كتابٌ في خطايا الإرثِ،
وعلامات غامضة
تفتّحتْ فجأةً أمامي كزهرةٍ
ثمّ انغلقت، في آنٍ، كحجرْ.

ما تُركَ لي، من بعد، في السرير هاجس بأسنانٍ
مستعارةٍ من قصص الأولين؛
فصولٌ تحاكمُ الربحَ وتثني على الخسارةِ،
تتدافَعُ آتيةً إلى صحوي من المجهول.
هذهِ المرة، أرادَتْ أن تعلمني حكمة قديمةً تقول:
ما بينَ موتٍ وموت نهارٌ قصيرٌ وليلٌ طويل،
والموتُ رقدةٌ

مكتبة الفكر الجديد

في الظهيرةِ نتمناه.
مجردُ اسطورةٍ قديمةٍ توارثت بالسردِ
وتكاثرت تفاصيلها
تعادُ الآنَ
لتُوضِّحَ الخسارةِ ما بينَ نوم ونوم.

هذا اليوم أيقظني الخوفُ من النسيانِ بضوءٍ متألق
وقالَ لي: اغتسلْ بالنورِ وتكشَّف لنفسكَ،
تجربتكَ هناكَ في الصحو، تلمَّسها،
أدخلها،
أكشفْ عنها
ثمَّ تحدثْ بها؛
لغةً تطلقها
بوجهِ اللغات وفوقَ صفحةِ المياهِ،
ربما يفكّ رموزها النائمون.
خرجتُ مِنَ النومِ مُثقلاً بالخطايا ـ أخرجني الوهمُ
في ساعات الصباح الأولى. الشمسُ ذهبيةٌ
تجَمِّلُ الرغبةَ في حلم ملوّن.

وقفتُ أتمرى أمامَ نفسي
كلّ شيء يدخلُ المشهدَ، وأنا أدخلهُ:

مكتبة الفكر الجديد

ضفةُ النهر ـ وما زال لونُ الماءِ رمادياً .
الطمي أحمر والعشبُ نديّ .
بضع أشجارٍ بالضوء مُكللةٌ ، والثمرُ جَنيّ .
لا صيادُ سمكْ يرمي الشباكَ
ولا نائمٌ على الضفةِ يخوضُ في الماء .

وجدتُ الزمنَ فارغاً ووقائعهُ مكدّسةٌ كالبضائع ،
رحتُ أمضي فيهِ :
روحي مسكونةٌ بالترقبِ ،
وأفق الشرقِ غافلٌ عن مَشهدِه .
المياهُ لم تغسلني ،
والنداءُ يدفعني لأخوضَ التجربة .
فجأةً
أمامي ،
تحتَ شجرةٍ ،
بينَ العشبِ ،
رجلٌ مُمَدَّدٌ من غير وسادةٍ ،
ينام
بقميصٍ أبيضَ ملطّخٍ ،
يداهُ موثقتان
عيناهُ معصوبتان

مكتبة الفكر الجديد

وفي رأسهِ
ثقبٌ

بدمٍ
مُتخَثِّر

مكتبة
الفكر
الجديد

أعمى من قرطبة

صدفةً، أنا الزائرُ مدينةً لا أعرفها،
رأيتهُ بنظارةٍ سوداءَ يقفُ
في الركن القصي من ممراتِ محطة «أوكسفورد ستريت»
يعزفُ بجيتارهِ لحناً يألفهُ المكان،
وكلّ مهاجرٍ تذوبُ بهِ روحه.
عرفتُ أنهُ من قرطبة: يغنيها جذلاً ويرددها ناحباً،
تركها والأندلسَ منذ زمنٍ،
يحضرهما الآنَ بأغانيهِ ـ قرطبة أخرى،
تشي بها عباءتهُ (بضعةُ نقودٍ عليها) بحروفها
CORDOBA
وببساتينها المطرّزةِ
وبقصرها
الأحمر
المتروك.

أنا لم أعد أتذكرُ الأمكنةَ، لكنها أحياناً
صورة من الماضي تناديني لأرحلَ إليها

مكتبة الفكر الجديد

هكذا عرفتُ أنكَ جئتَ من مكانٍ نسيتهُ،
أنتَ الغريبُ،
صداقةٌ تربطنا
وأنا المطوَّفُ بأسماءٍ وأحداثٍ وأسلافٍ
وبأماكن مثل قرطبة غيَّرت مكانها
ونفثتْ صفاتها.
نعرفُ بعضنا مِنَ الخساراتِ
ومن الصَلاةِ الطويلةِ
لهدأة الروح الحردة.
هنا في المحطةِ الوحشيّةِ لن ترانا في الممرات الحشودُ،
ولا تسألُ عن مكاننا الأول: في رؤوسنا مبضعٌ
تكفي عداوتهُ لنحاورَ بعضنا
ونوغل في دمنا الأسود،
نكلّمُ فراغنا
ثمَّ نهذي أمامَ أفقنا المسدودِ
بالأحجار

أنا لا أسمعُ الأصواتَ لكنني
ألتقي بها أحياناً فأسمعُ صوتي

إعزف الآنَ لترى خطوكَ: تتركُ قرطبةَ
عابراً البرينيزَ بثلوجها وعظام عابريها من الحروب.
رأيتكَ تستوطنِ المحطات؛

مكتبة الفكر الجديد

في الوحشةِ متاعكَ
فرصٌ مُدمجٌ وعكاز.
تحملُ الجيتارَ وتسمعُ ركامَ سيكوفيا
جاعلاً من أوتاره صنّاجة تعلنُ بها وحشةَ كارمن.
في الأمس غادرتْ الغجريةُ قرطبة
لأجِبَّةٍ يهبونها النقود،
وحشيّة تجولُ في ايبريا؛ في دمها
طائفة من خيولٍ مُروّضة:
رجالٌ بقلنسواتٍ من شمال أفريقيا
رجالٌ في الحلبةِ
يصارعونِ الريحَ والريحُ مازالت تهبْ.

إعزف الآنَ وحدتكَ خارجَ الضجيج،
واقتنع بأن قرطبة قريبة
وأسوارها في قلبكَ مهدّمة:
تعزفُ وتتركُ مدينةً نبذتكَ وتحبها،
لكنكَ تغادرها
أعمى من ضيائها
وفي رأسكَ
لم يتغيّر المكان.

مكتبة الفكر الجديد

أنا لا أعبأ بضجيج العمر ولا بما يتكرر
لكنني أحياناً أفاجَأ بصوتٍ غريب

من بعيدٍ تأتي أنغامُ جيتاركَ
صلاة وثنية مرمية بوجهِ الزمن
(نقراتٌ مثل طبول الأوّلين)
غير عابئةٍ بالوجوهِ الشاحبةِ
تسعى إلى القطاراتِ
وترحلُ مع الذاهبين.
موسيقاكَ لكَ، كأنما أنتَ في غرفةٍ مغلقةٍ / متصوِّفٌ
تحاورُ الغيبَ / مكتفٍ بالوحدةِ /
تطيرُ سجّادتهُ إلى السماء،
وحروفُ جفرهِ مُوَجَّهة
نحو أرواحٍ
تلوذ بالنجوم.

أنا لا أبصرُ معالمَ الأشياءِ لكنني أحياناً
ممتلئ بالرؤية عندما يأخذني الغياب

رأيتكَ مكتفياً،
لا تستجدي أحداً، إنما تنقرُ على الأوتارِ
غير عابئ بالصدى يرددهُ الممرُ الطويل،

مكتبة الفكر الجديد

تشربهُ وتنشرهُ بغير نشوةٍ ومن غير ألَم.
وحدكَ لاعبٌ محترفٌ، سكرانٌ بأسفارِكَ المفترضة،
تَمُرُّ بكَ الأشباحُ ـ لا تتركُ لكَ إلاّ ريحها الفاسدة.
لا تبصرُ الناسَ، ولا تعبأ بزعيق القطارات.
في النفق الأرضي أمواتٌ يسعونَ لبلوغ أمواتٍ
مستنسخٌ وقود أجسادهم بماكنة المدينةِ،
يسكّونَ بالوهمِ النقودَ ويسعونَ إلى النومِ
وأنتَ مفلسٌ تملكُ زمام المدينةِ،
تعافُ أن تطلب شيئاً
لأنكَ ممتلئ
وتتحصنُ
بحجابٍ يسقطُ بينكَ
وبينَ العالم

أنا محاطٌ ومحاصرٌ بالخسارة لكنني
أتساءلُ أحياناً عن معنى الخسارة

لا تعزف ما هو حزينٌ، لئلا يتذَكّر القلبُ خسارته،
ماضي الأيام كانَ ألِقاً، معشوشباً،
وقرطبة تسهرُ منعشةً في المساء.
تعلّمَتْ أصابعكَ في أفيائها أن تبَدّلَ أفياءَها
بوترٍ مشدودٍ وبوترٍ مقطوع

مكتبة الفكر الجديد

يتبادلان الجدَلَ في معنى الزمان
وأنتَ تكسيهِ بالفراغِ
صوتكَ في البريّةِ مجهولٌ
يكشفُ لكَ ما هو مستورٌ في المكان،
أنتَ العارفُ بالتفاصيلِ
لن يتكشَّفَ السِرّ لأحدٍ، ولن يُفسَّرَ ويمتلئ بالمعنى.
ماضٍ كانت الأيامُ، والتواريخُ كتابٌ في مكبسةِ
يسردُ متونه رواةٌ مقلِدونَ.
حواةٌ من البرّيةِ،
ثعالب ترصد
الطريدة

أنا لا أعرفُ كتابَ التأريخِ لكنني
أحيانا أسترجعُ بعضَ أحداثه

كلّ أثرٍ محتشد في عينيكَ المطفأتينِ
علامات نراها؛ وُشِمَتْ بالنيرانِ ودُمِغَتْ بالرماد.
تعرفُ انّ ليلكَ مُحترقٌ وما من نهرٍ يطفئ الحريق،
ونعرفُ: نهرانِ وبحيرات صَبَّتْ مياهها على الأسوار
وما زال الجمرُ في اليدينِ يلتهبُ.
مَن يكتوي يتناسى بيتهُ؛
أعمىً يلتجئ

مكتبة الفكر الجديد

لمن يوعده بالضياء.

مُنذُ روما، وعبد الرحمن الذي دَخَلَ
مختبئاً، والدورةُ مكتملة؛
هوَ الثورُ نفسهُ، مُغمض
العينينِ يدور، والسيِّدُ يلهبهُ بالعصا.
في الطاحونةِ القديمةِ
اصطف الحرسُ الأهلي
وفي المطحنةِ الحديثةِ حرسٌ يوقفون الأحلام،
تضيقُ السماءُ بمن يستحضر زريابَ،
وضيّقة هي الرؤية لمن يؤاخي ابن رشدٍ،
ثمَّ يضيقُ بهِ المكان حتى العمى
فيستنسخ لنا، في يقظتنا وفي نومنا
طرقا مُغلقةً
فلا نرى
مثلكَ
إلاّ
السوادْ

أنا لا أحدد الأماكنَ وأُسمي الأسماءَ
لكنني أستعرضها أحيانا لأتثبتَ من مكاني

مكتبة الفكر الجديد

رأيتكَ، صدفةً، مرتينِ:
في نفقِ أوكسفورد بلندنَ، وفي نفقِ أوكسفورد
يضجُّ الرواقُ بالمارةِ
والسلالمُ تنزلُ وتهبطُ ٥٠٠ درجة. الريحُ كريهةٌ.
أمامكَ القبعة فيها النقود؛
ثمن النغماتِ لشحّاذٍ أعمى
وطيفُ مدينتكَ يعبرُ المانشَ
فلا يُبقي للمسافرِ زؤادةً من وَتَرْ.

في المرّةِ الأولى،
في النفقِ، وقفتُ صوبَ الجدار
أسمعُ نقرَ المطرِ على القرميدِ
فأديرُ لكَ الأشرعةَ ظاناً هو الطوفان في الأطلسي.
تعزفُ بجيتاركَ ما هو قديم:
سفن الذهبِ وشحنات العبيدِ، وخراب قرطبة.
رميتُ نقداً في قبعتكَ
رائياً الطرقَ المراقبةِ صوبَ أوربا
يختبئُ فيها الهاربُ مثل لصٍ
يمشي في الليل
متلمساً
العتمة

مكتبة الفكر الجديد

في المرة الثانية

بحثتُ عنكَ،
ومن بعيد سمعتُ موسيقاكَ
تصطدم بالمارة وتضربُ جدران الرواق.
نغمات قرطبة لا تعبأ بالقطارات الزاعقة،
ولا بالريح الفاسدة في نفق اوكسفورد.
وعن كثبٍ رأيتكَ والأسمال أمامك.
أنا الممتلئ بمخاطر السفر.
لحظة انحنائي لأرمي النقود
رأيتكَ نائما
والنظارة السوداء على عينيك، تبحرُ في المتوسطِ،
أو هكذا تخيّلتكَ في البلدان نائماً تمشي.
رأيتُ في الكيس الذي بجانبكَ
جهازاً يعزفُ قرصاً مُدمجاً
تكمن فيهِ بساتين قرطبة، فتحنو إيبريا على منفاكَ
واضعةً في عهدتك زهر الرمان وقميص لوركا
يودعكَ صوت سيركوفياس
ويستقبلكَ غناء بوتشيللي
فتخلو إلى نفسكَ
أنتَ وحدكَ
وأنا وحدي
أفسّر

مكتبة الفكر الجديد

أنا أنبذ التفاصيلَ لكنني
أحدسُ أحياناً بما سيأتي

أعمى من قرطبة
رأيتهُ يعزفُ أيامهُ بغيرهِ،
لا يعبأ بالمزاميرِ، نسيَ سفر التكوين
وأهملَ الآياتَ مسقطاً راية الانتماء
غير مكترثٍ بالنقود ولا باليدِ الممدودةِ إليه.
لحظةً عميتُ،
ثمَّ
امتلأتُ فجأةً بالضياء ؛
أنا لا أبصرُ لكنني، أحياناً،
أرى ما سيأتي:
ظلمة
تقودها جيادٌ مسرعةٌ
يسوط حوذيها العربةُ نحوَ الأفق البعيدِ
يَخترعُ رعوداً وبروقاً
تعمي البصرَ،
ربما تبعتُ إلى البلدانِ موسيقياً أعمى
يختزنُ الأصواتَ
ليعزفَ أيامهُ الرحلتْ
منتظراً ما تبقى من الوقتِ

مكتبة الفكر الجديد

أنا مخترقٌ بالأسئلةِ أدعوها إلى وليمتي
لكنني أتغافلُ أحياناً عمن يطرح السؤالْ

مكتبة
الفكر
الجديد

مَشهدٌ على دجلة

ذلك الصباح قلتُ؛ أنا صيّادُ الأعشابِ والدُخانْ: ذلكَ البرزخُ المائي أمامي هو برزخٌ صَنعتْهُ الملائكةُ للخداع، والملائكةُ تكتبُ ما تريد، روحها صيّادٌ ماكرٌ يقتنصُ أكياسَ الزمنِ مملوءة بذاكرةِ الأجداد. ملائكةُ تريدُ أن توقِفَ التحوّلَ وتستعيد الزمنَ الذي رحَلَ، بينما النهرُ يَجفُ والروحُ تغيبُ والأرضُ تتشقّق. هكذا كانت الحقيقةُ مُنذُ مئات السنين؛ تندبُ الناسُ وتجفّ آبارها وتموتُ الأشجار أمامها.

في ذلكَ الصباح المبكّر أوفدوا إليّ العرافينَ، من الماضي، ليمسكوا حبالَ الليل وقد شُدّت بغرفتي، وغرفتي تريد أن تطوف. كان الضيوفُ المبهمونَ يستثمرونَ الأوهامَ ويخترعونَ الجبالَ تنزلُ منها السيول. يراهم الصيّادُ واراهم زهوراً يعبق عطر رحيقها في المرآة تتمرى بالماء وتتعرّى بهِ. ماداً إليهِ يدي قلتُ: أنتَ توأمي، صيّادٌ مثلي، نصيد في نهرٍ جفّتْ مياههُ، خذني إذاً من هذهِ الغرفة، اسحبني بصنّارتكَ وغطّني بشباككَ قبلَ أن أجبر على التوهم.

لقد أبصرتُ الغسقَ بعدَ أن أحصيتُ عدداً من الليالي، والليلة الآتية ستأتي لي بنذورٍ وبروقٍ ترمي في النهرِ الشحيح شموعاً، هيَ قناديل موتى دون أن تكون بشارة للصباح. قلتُ خذني إلى حكمة الزمن وقد

مكتبة الفكر الجديد

التبست عليّ أسرارهُ، لأفكرَ مثل رأس «نرامسن»[1] متوهماً مشككاً سلالتهِ، ورأسي ممتلئٌ بحقولٍ من الخشخاشِ وبتعزيمة البابليين.

ويتأملُ الصيّادُ ضيوفَهُ المبهمينَ، فيما يتأملني، فيرى الحقيقةَ أحياناً: أراضٍ قاحلة تحيط بهِ ونهري ضحلٌ، غيّرَ مجراهُ نحو الشمال، يصطدمُ بكهوفٍ وجبالٍ، يطاردُ الفهودَ والدببةَ ويخرّبُ مخابئ الخائفين. يلتقي بناسٍ يصطادونَ الطريدةَ، اعتادوا رَميَ شباكهم على ديدانٍ وعلى خُوَذٍ وعلى صداري من زرَد، كانت إرثاً لهم من قبل ومن بعد.

أنا إرثٌ لمياهٍ آسنةٍ، فُرّغَتْ مرات وامتلأتْ بالوعودِ مرات أخرى؟.

لكنَ الهذيانَ، صانع الضوء والظلمةِ، يحملُ المفاتيحَ ويفتحُ البابَ الذي يريده.

لما بدا الماءُ غمراً يحملُ السفنَ. فيضانٌ للمعرفةِ يقرأ على سدودهِ ملوكٌ مبجّلونَ أسفارَ الممالك، وحكمتهم تقول:

صيادونَ نحنُ في هذهِ البوادي نعلمكم الصبرَ في انتظار الطريدة، نوفدُ

---

(١) «نرامسن» أحد ملوك «أكد» أول مملكةٍ سامية تأسست بعد فجر السلالات ثمّ سقطت ودمرت بيد الأقوام الجبلية. موقع عاصمتها مجهول لم يُحدد الأركيولوجيون مكانها. ورأس نرامسن مصنوع من البرونز ـ في متحف بغداد ـ يثار حوله الجدل ما إذا كان نرامسن المُؤله أو رأس الملك سركون الأكدي وقد حُسّنَ في عهدهِ. وتطورت في عهد المملكة اللغة السومرية إلى الأكدية السامية، وانتشرت في آسيا الصغرى ومصر وأصبحت أيضاً اللغة المحلية للبابليين والآشوريين.

مكتبة الفكر الجديد

الأم أحفادنا بعرباتٍ ذات خيولٍ وصواعق، يأتونَ إليكم في النومِ كل صباح، مكللينَ بوسخ الضبابِ، ليغتسلوا بالنور وبسعف النخيل، وليطهّروا أنفسهم بنار القيامةِ في هذا النهر الشحيح الذي يفيضُ حينما نريد.

هم الصيادونَ وأنتم صورةٌ في مشهد.

إذاً، مبهمٌ غبارُ التحوّلِ تعصفُ بهِ ريحٌ كاذبة فتغيّرُ المواقع.
شحاذٌ يتسامى، وما هو مغلقٌ يمتلئ بالضوءِ ويتنقلْ.
كأنّ الروحَ مسّتها كهرباء، فجأةً يكتسي وجهي بقناع الملوكِ
ويطيعني كاهنُ المعابدِ،
أنا الصيّادُ والليالي ليلي، أصيدُ النجومَ وأطفئ بريقها،
أهجسُ خلفَ القناعِ بديدانِ وقيعان أحجارٍ وجنادبْ
تحيلني إلى الماضي فأستسلم.

تلكَ الليلة، قبيل الصباح، وأنا في مسكني أقودُ أعضائي وزمني المحمّل بكيسٍ إلى الوليمة، قلتُ: ها هو الليلُ الأخير وقد تكسّرتْ أوتادهُ. وها هوَ الموعودُ بالذهابِ إلى النهار الوشيكِ يوفدون لهُ الجنود ليأخذوهُ عنوةً إلى قاع الوَهم، غيرَ أنهم يلقونهُ في غبار المخيلة؛ في الغرفةِ التي جفّتْ، تلوبُ الروحُ فيها ثمّ تأكلها الديدان.

مكتبة الفكر الجديد

ولأنّ الوقتَ هو الآن وقت الضياع، والصباحُ آتٍ لا محالة
يبدأ المحراثُ يحفرُ ماضي السنين،
فتبتعدُ عن الصباحِ، وتغتربُ، وتتنكرُ لكلِّ صباحٍ جديد.

مكتبة الفكر الجديد

آخر الليل

هذهِ الغرفةُ المُطفأةُ النورِ أضحتْ مكاني،
أُدخِلْتُ فيها عنوةً لتنادي المخيّلةُ جنودَها للحضور.
حجرةٌ مأوى، يديرُ بها الوافدون إليَّ من القرى
حربَ لصوصٍ على الغنيمة؛
كلٌّ يسرقُ الأخرَ
تسترهم عتمةُ موروثٍ ثقيل.

في الغرفةِ، على المنضدةِ، فأسٌ
ترتفعُ على الماضي الجريح،
يُخوّلني الاقتراب منّي أن أقطعَ البوادي، صيّاداً أو فريسةً
أدخل الغابةَ حَطّاباً
ثمّ أهربُ طريدةً من خوفِ الكمائن.
ذخيرتي في العتمةِ، وعدّةُ معركتي، كلماتٌ، حشراتٌ.
مُجرّد دبيب أرجلٍ للحروفِ على البلاط
لا تُفكّكُ ليَ الكمائن.

في الغرفةِ المعتمةِ يفوّضني الماضي

مكتبة الفكر الجديد

أن أحضَرَ، وأشهَد الحروب:
كيفَ تَرَوّضُ المعرفةُ خَدَماً للعاصفة
وتقلعُ الحكمةُ أنيابها
متحدّثةً معي
في آخر
الليلِ
عن التصالحِ معَ ضيوفٍ غرباء
يضمرونَ العداوة.

في الكهفِ الصغير ـ المربعُ الذي
تتقلصُ أضلاعهُ من تلفِ الزمان ـ
كلّ شيءٍ يقف قبالتي ضيّقاً
مُكبّلاً بميراثٍ ثقيل: صدري ومِخجَرَيَّ،
نومي ودهشتي المقتضَبة،
وكذلكَ أيامي المُروّضة كالأسودِ
تنتسِبُ كلّها إلى المراثي وتنوح
بعيدةً عنّي
مثل نجمٍ منفلتٍ بين النجوم
يَخُرُّ
وينطفئ
ذلكَ القلبُ، المُحَمّلُ بالمواعيدِ، الذي أمطَرَ الغيمة،
هوَ الآنَ ينأى بيَ

مكتبة الفكر الجديد

إلى هناك
حيثُ الصقيعُ قاسٍ في حضنِ
الضغائن المُغلفةِ،
وصحراءُ الصداقاتِ ما زالت تحترقُ
دونَ انطفاء.
في هذا الكهف المُضَيّق بي
كفهدٍ مثخّنٍ بالجراح
أنتظرُ وألعقُ الحكمة المؤجلة
وليسَ للوقتِ حساب،
لكنَّ الساعةَ توذنُ وتدقّ. تدقّ بإلحاح،

في الثانيةِ تدقّ
وفي الثالثةِ
أو في الرابعةِ، وفي ما سيأتي بعدها، تدقّ
لتخطو الأشباحُ والأرواحُ المنسوخة نحوي
آتية من الماضي
صامتةً تجثمُ على صدري
فتستدعي لها الوليمة
ثمّ تأكل من
قَلبيَ العجوز
وقد تلفت أليافهُ
في الغابةِ التي توهّمتها لنفسي

مكتبة الفكر الجديد

وتوغلتها
منذُ زمنٍ
بعيد

مكتبة
الفكر
الجديد

ملوك

نحن الملوكُ نرغب أن ننبذ الرعيَّةَ
ثمَّ نُطعِمُها بالفتات، حينما تجوع،
نعرفُ بالبديهةِ كيفَ نُروِّضُ الثعالبَ؛
أن تُداهِنَ الفريسةَ وتُمَثلُ أمامها الضحيّة.

سُلمنا مرفوعٌ إلى السماء، تيجاننا لدى الحداد
يطرقُ عليها، ويوشمها بالنصيحةِ والفضيحةِ والخطيئةِ
والرذيلةِ. . . . الخ
لينشغلَ بها مَن يجمعُ المناقبَ،
ويلظمها مِسبَحَةً يُعدِّدُ بها الصفات.
في قصورنا المتوارثة حواريونَ وخدم،
مُهرِّجونَ، متنبئون وسحرة،
يحملونَ المرايا منذُ عهدٍ، توّابونَ مخلصونَ
يستحضرونَ بالخديعةِ، مِن الكتبِ والسِيَرِ، ملوكاً يتناسلون الملوك،
قامتهم عمالقة وغضبهم جهنَّمْ.

ملوكٌ نحنُ، دوماً، وبامتياز،

مكتبة الفكر الجديد

رَعِيَّتنا رعاةٌ كلابهم تحرسُ القطعان.
عرشنا على الماءِ، لا نتوهمهُ، بل نستوي به على البحار.
كمائنٌ صديقةٌ، في إبحارنا، نمرُّ بها،
تحرسُ الموكبَ وتُلوِّحُ للريحِ أن تدفعَ الأشرعةَ
إلى الأقاصي، إلى المكان المستحيل.
لنا حواريونَ وخدم في الجزر المزروعة على الدربِ
يرفعون البيارقَ لموكب الملوك.
يُحَذِّروننا من القراصنة.
مُتَوَحِّدونَ، بأيديهم مناظير،
كنوزهم في الصناديقِ كتبٌ، وحديثهم جِدالٌ.
درسوا الأنواءَ ويمكنهم أن يجردوا الإعصارَ غضباً
يهشمُ مَركبنا
ويكسرُ كرسينا الخشبي
لنطوفَ على الموجِ
زبداً نفتهُ المياه.

لكننا ملوكٌ
وَهُم الخدمْ

مكتبة الفكر الجديد

مُسودَّةُ الطفولة

لم أعُدْ ذلكَ الطفل الصغير؛
مَحّارة فُتِحَتْ، رماها صانعُ الماءِ والرملِ والملح
في حضنِ الدهشةِ، يقبل الجرحَ ويضمّدهُ بالزمن.
ارتفعَ صوتي وزادتْ محاججتي، كثرتْ أسئلتي
فألقيَ بي في نارِ موقدةٍ بزيتِ الآخرين،
ثمّ فُصِلتْ فلقتا المحارة بسكين سارق البحار،
قدّمها وليمةً لقراصنةٍ
من عوائل
تشبهُ العوائلَ،
من شجرٍ مكرر،
واحدٍ،
أغلقَ عليها صانعُ المفاتيحِ النمو.

كَبرتُ والسنواتُ تتبعني،
لا تميّزني، كما أرى، برداءِ أرتديهِ ويرتديني،
قماشٌ نَسَجَتهُ العادةُ، تلبسهُ الناسُ؛
كما القفلُ والمفتاحُ على بابٍ حديدي.

مكتبة الفكر الجديد

أحصي الزمنَ ولا أفتحهُ.
في جيبي نقودٌ لا تشترى
بها الرغبة
ولا تُطفئُ الحيرة.

أعرفُ الآن تماماً، بعدما كبرتُ، مَيِّزة الأشياء.
تعلمتُ الكلماتَ
أتقنوني العملَ والإشارةَ
والساعةَ، طوّفوني فوقَ العلامات:
غمامةٌ تنصبُ المحطاتَ حيثما توجّهتْ.
جنّدوا ليَ الشهوةَ، كما أرادوا ـ أن تستيقظ وتنطفئ
في ميقاتٍ مُصَنّفٍ، والحلمَ
أقولُ لهُ ابتعدْ، أنتَ طائرٌ لا أمنحُ لجناحيكَ الهواءَ،
فيبتعدْ.

دقّت الساعةُ فانتهى الليلُ ليخرجَ الطفلُ
من المملكة القديمة.
ما من ملوكٍ بعدُ
حاشيتهم ملائكةٌ
أو أبطالٌ يتمردونَ على الآلهة،
تقوم القيامةُ، ثمَّ يبدأ العالمُ من جديد.

مكتبة الفكر الجديد

كبرَ الطفلُ، انتهت الأسئلةُ وتنصلَ عني قوسُ السماءْ
لم يعد مَن يضيءُ مصباحي يملكُ زيتاً
أو يستحضر ليَ
الخيولَ المجنّحةِ
من السماء.
لم أعدْ أنا.

هذا الصباح، وقد تكللتُ بالسنين، سأذهبُ في مهمةٍ
إلى الشوارع والشوارع مشذبةٌ ملتويةٌ متشابهةٌ.
أقيسُ ارتفاع البناياتِ
وأحصي النوافذَ
مكللة بالأطيافِ معتمةً
بالدخانْ.
بيدي بوصلة وفي كيسي أرقامٌ؛
كم شاحنةً حُمِّلتْ بالنفطِ؟
وكم فأساً نزلتْ بين الناسِ؟
مَن يفصلُ المودّةَ عن المودةِ،
يُغيّرُ المودة الموعودة إلى محض إحصاءْ؟

لم أعدْ ذلكَ الصبيُّ
الملتهبُ بالكهرباءِ، حُضنهُ واسعٌ للدهشة
وفي جيبهِ مفاتيح البحار،

مكتبة الفكر الجديد

يرفعُ يديهِ ليرتِّبَ الغمامةَ،
يُسَيِّرُ الرياحَ، تجربةً أولى لهُ، يمضي على الماءِ؛
يبني السفنَ لترسي على الرمل فيلتقط الأسماكَ الميتة،
يطلقها طيوراً توذن بقدوم الفصول.

في مدينة الناسِ، وقد كبرتُ، امتزجت بالعناصر:
مثل الحديدِ
والأسمنت،
بنيتُ بها قاع المدن.
كالشعبِ
كجيشٍ سريٍّ في الوظيفة
يستنسخُ ويعيدُ الأوامرَ طوعاً.

ألمسُ قلبي الآنَ،
وفي الماضي،
يَضخُّ وعودَ الرغبات ويُراكم الجمالَ،
لكنني مثل الآخرينَ أرتدي قناعاً
يلبسهُ الموعودونَ بجنةٍ مُنجزةٍ
يدخلون فيها وقد ابيضّ شعرهم
من الانتظار.

مكتبة الفكر الجديد

صداقات

بيدي مِعوَلٌ، أخفيهِ منَ اللصوصِ
ومن ضغينة البنّائين الذين يهدّمون،
أتسلحُ بهِ وأحفرُ أبراجاً،
لعلَّ الحفر يفضي إلى
ضوءٍ نتعرفُ به على وجوهنا،
ونكشف نوايا الآخرين.

بنّائونَ مُؤجّرونَ يحيطونَ بالمكان،
داخل حفرةٍ في الأرضِ،
عيونهم مصابة بالعمى؛
لا ينزلونَ النبعَ إلاّ بحساب الأرباح،
تجولُ حفاراتهم فتبني السدودَ في التراب المحروق،
عسى السواقيَ تفيض بالجريان
فتهدم المكان.

في كهوفِ أحفرها هنا،
على الورقةِ البيضاءِ ـ منضدتي ومكاني.

مكتبة الفكر الجديد

منتظراً مَن يفتح ليَ أبوابَ الحقول،
أرى الريحَ سعيدةً
تأتي على الحدائقِ
فتنقل أريجها.

حفّارون مثلي، أراهم متكئين على المكان،
خزائنهم مزدانة بالخرائط،
لاجئون إلى أنفسهم يملكون مرصداً
يراقبون من نوافذه الحريق.
يريدون عقدَ صداقةٍ، دون حساب الزمن،
لعلّها تفضي بهم إلى السكون

ويأتينا ضيوفٌ جلودهم أقنعةٌ
أُغلقتْ عليهم منافذُ الرحيل،
حفارونَ لا يبصرونَ في العتمةِ،
تتحدثُ إليهم ملائكةٌ،
فتستحضر لهم المخيلةُ ذاكرةَ الصبا
مُوسّعةً لهم ضيقَ المكان.

الكلُّ يحفرُ في المكان حلم لَيلِهِ؛
بناءٌ هوَ الليلُ عدّتهُ الوهم
أحجارهُ نجومٌ

مكتبة الفكر الجديد

يبني بها بيتكَ وبيتي،
سحابةً من الغبطةِ،
وأنتَ نائمٌ في السرير.

مكتبة
الفكر
الجديد

الذّئب

إلى سركون بولص

هوَ الذي ينامُ كلّ وقتهِ.
ذئبٌ جريحٌ بينَ الذئابْ،
يتأملُ لحظةً في منتصَفِ الليل
يخلط الحروفَ ويشيّدُ بها قلاعاً على رملٍ مسحور.
هناكَ قناعهُ المعلّقُ
يَبْزُّ خَيطُ دَمٍ في صَحرائِهِ،
ومنذُ بِدءِ الرّيحِ يأتي إليهِ هذا العِواءْ
طالعاً منَ الرّوحِ
تُرَدِدهُ الأيامْ

بلادهُ تَحتَ جَفنيهِ وَهْمُ قارةٍ عَتيقةٍ،
فيغمضُ عينيه:
أراضٍ يَصِلُ إليها الدمُ، بُركةٌ منهُ، والأثَرُ على الجليدْ.
هذا الثلجُ، فوقَ الكراسي، قُرْبَ النافذةِ
يَدخُلُ منها قَمَرٌ مُحْمَرّ

مكتبة الفكر الجديد

ونِداءُ بناتِ آوى
ليجوبَ في أحراشِ رأسِهِ التالفة
وليَمُدَّ الرأسَ بينَ قناع وقناعْ
فينامْ.

يَرى التحوّلات
في الشخوصِ وفي الأشياءْ
تَدخلُ المَشْهَدَ ثُمَّ تغادرْ
بأيديها نُذورٌ
وشُموعٌ للمياهِ
تُضيءُ الزّمنَ الذي مضى.
الزمنُ الذي هو الآنْ

تموّجاتٌ منَ التذكّرِ:
في الجبالِ تَجوبُ الضواري
والقرى في صُخورها مُختَبِئة
تَفزُّ القطا ويَدوسُ بيضها الصيّاد

بينَ لحظةِ النومِ والنوم
يَستَحضِرُ الأهلَ ـ مراياً:
أناسٌ يَتَبادَلونَ خُبزَ الحياةِ
أناسٌ يَشتَرونَ وقودَ الرّوحِ

مكتبة الفكر الجديد

بِفِخاخٍ مَنصوبةٍ للرّوح،
قصّابونَ يَشْحَذونَ السكاكينَ
وفي سَريرِهِ أطيافُ حِملانٍ يَتَطهّرون

هكذا
تُقامُ طقوسٌ
فتقرَعُ طبولٌ
للمَغفرة،
لأُناسٍ يَرتَدونَ الأقنِعَةَ
فيأتي إليهم عواءُ الذئابْ

هُوَ الزّمَنُ قَديمٌ،
زَمَنٌ جديدٌ يُقَلّبُهُ
يستدعي لَهُ الذئابْ
يَعْوي في مُنتَصَفِ الليلِ لِقارتِهِ المُغطاةِ بالجليدْ
قِناعهُ في النهارِ وِسامٌ مُعَلّقٌ

وفي حروب الليلِ، بينَ غَفْوَةٍ وغَفْوَة،
يَغرِزُ مخالِبَهُ في قلوبِ الملائِكةِ
لِيَشمَّ رائحَةَ الدمِ
في يَدَيه

شباط/ ١٩٩٩

مكتبة الفكر الجديد

جليل[1] القيسي، حارسُ المدينة

(١)

رَأيتَ

ما لم نرَ:

(في مِحْجَريكَ عينانِ من عقيق)

أبصَرتنا، نَرحَلُ بريحٍ خفيفةٍ تضربُ قلوعنا.

آملينَ الدَهْشةَ، نَحمِلُ جمرَ ما سيأتي،

وأنتَ بنَفْسِ الحريقِ الذي شَبَّ،

مَكَثْتَ

---

(١) جليل القيسي قاص وكاتب مسرحي ولد في كركوك، شمال العراق. صدرت مجموعته القصصية الأولى «صهيل المارة حول العالم» في نهاية الستينيات، عن دار النهار اللبنانية، طبعت بملامح الحداثة للجيل آنذاك. عاش القيسي مع مجموعة كركوك التي غادرت العراق فيما بعد لمواقفها من الإبداع والحرية المضيقة عليهما تحت نظام البعث في العراق. وقد اتهمت آنذاكَ بالتنكر للتاريخ العربي والتراث القومي (كذا) وقمعت مواقفها الليبرالية من الثقافة. وقد آثر القيسي، فيما بعد، مع اشتداد الحملة الانزواء والصمت والبقاء في مدينته كركوك، شبه منقطع عن العالم وعن أصدقاء الشباب الذين هاجروا ورحلوا إلى المنافي، على رأسهم أنور الغساني وسركون بولص وجان دمّو وفاضل العزاوي ومؤيد الراوي. وطوال عقود، بسبب دكتاتورية حزب البعث في العراق، لم يتم بينه وبينهم اللقاء أو حتى تبادل الرسائل. وأسقط جدار ثقيل ليحول دون المودة والحب القديم بين القيسي وخلية كركوك الثقافية.

مكتبة الفكر الجديد

لِسَفينَةٍ

تُبحِرُ

مِنَ

الماضي

تنتظرُ لها ماء الطوَفان.

شاخِصاً في الزمانِ، تُرَتّبُ تاريخهُ

تضعُ هذا الشخصَ هنا

وذاكَ الشخصَ هناك

لا لِمَوَدّةٍ، وإنّما الأرواحُ هكذا،

تَتَخاصَمُ

وتتصالحُ

بَعدَ كلّ غمْرٍ، فتأتي السفينةُ جانحةً

تبدأ برَتقِ قعرها

مثلما تُهَذّبُ بالكلماتِ طفلاً يتعلمُ الكلام،

ثمّ تنحَتُ من الصلصال سِفْراً

للبقاءِ، وسِفراً للرحيل

لأنّكَ

تَوَهّمتَ

وَ رأيتَ

ها نَحنُ هنا

مكتبة الفكر الجديد

أمامنا أقفاصٌ طافِحَةٌ بالوَهمِ،
نداريها بالنوم الطويل
لنوهِمَ الوَهْمَ
وَنحَمّل أيامنا على فراشاتٍ تَموتْ.
نحنُ هنا، مُقنّعونَ بالرضى،
في غُرَفٍ مُقفلةٍ
نفتحُ أحياناً، في خدَرِ الوهمِ، أبواباً على الليلِ
لعَلّ مَن يأتي سَيذْهِشنا،
بيدِهِ مسحاة يُقَلّبُ بها الصدور
أو يَحْمِلُ لنا عُيوناً، جاءَ بها من الماضي،
نرى بها
وجوهَنا

في شح الفانوسِ
نَرمي النَردَ ونقامر، مثل لصوصٍ، على مَن سَيأتي.
وماذا سيأتي في المنام؟
طائرٌ أو صَيّاد طائر
أو ربما عَرّافٌ
يسردُ سيرتنا الموجزة
ويقترحُ أن نذهبَ
معَ المُهَرّبينَ
إلى تلكَ البلاد.

مكتبة الفكر الجديد

ها نحن أصبحنا مُفلسينَ من الوَهمِ
لأننا
كَرّرنا ما رأينا
والأيّام كانت الأيام، تَنزعُ جلودها كالأفاعي
لِيَمْضي بنا الوقتُ
بطيئا
ونحن
ننتظرُ
ريحاً أخرى تنشِرُ لنا القلوع

---

(٢)

رَأيتَ
ما لم نرَ:
(في مِحجَرَيكَ مرجانٌ يَشِفّ عن رؤى، فيُنذِرُ عن جحيمٍ يتكوّن)
على جَبينِكَ المعروقِ من التتبّعِ وَشمٌ لدهشةِ الطائراتِ،
تُحِبّ الحريقَ وهي تحلق،
تَوَسّعُ المدى وتوَسّعها، ثمّ تُعَمّقُ للموتى قبورهم؛
جُنودٌ يَربحونَ الحَربَ
وجنودٌ يخسرون:
رهانُ مُضاربٍ على قِناعٍ قديم.

دهشَةٌ في العينين الكليلتينِ، حينما

مكتبة الفكر الجديد

يُفَسِّرُ الموتُ ـ برضى الضمير ـ
دَعابةً
أو لعبة مقامر.
تنبعثُ غيمةٌ كالزعفران
تُغطي القرى
وَتُفَسِّخُ الأشجارَ
لِتُعلِنَ الناسَ إضمامة وقودٍ من فحَمْ.

أقوى منَ الآلهةِ انتحال الأنبياء.
أعلى من السماءِ طموح الأدعياء.
يأتونَ مثلَ راءٍ مُزَيِّفٍ، راهنَ
على القوّةِ
ولم يخسر الرهان.

رأيتَ
كُلاً في مَخبَأهِ
ووَجهُكَ مُكرَّرٌ في غرفةِ النوايا حتى تعَكرتْ.
الرأسُ مغمضُ العينينِ
لِئلا ترى
كائنات من شقوق السقفِ تدعوكَ إلى الوليمة
بأكفّها السكاكين.
راقَبْتَ الأفاعيَ تقتاتُ على الأطفالِ

مكتبة الفكر الجديد

مُتسللةً إلى المهدِ الذي تهذهدهُ
وتعبث في الرمادِ المتبقي أمامكَ.

(٣)

رأيتَ

ما لم نرَ:

(في وسْعِ عينيكَ زُمُرّدٌ ويغطّي حاجبيكَ الذَهَبْ)

هوَ التنبؤُ بما سيأتي:

قدَرٌ يحمِلُ ألغازاً، تفكِكُ أنتَ أسرارها،

وتداوي الناسَ ـ منسوخينَ منَ الخوفِ ـ

تُضمّدهم في الأسِرّةِ:

جُثثٌ تخشّبتْ وجَفّتْ منذ عَهْدٍ

يَفعَلُ الحَطّابُ بها ما يريد.

مِبْضَعكَ في القلبِ نِواحٌ

وأبوابكَ إليهم مُضَيّعة المفاتيح.

هكذا المدنُ والطرقُ والسماءُ والطعامُ مُفْسَدَةٌ

والماءُ الذي يغسلُ الخطايا

يَسكُبُ تعويذةً للخلاصْ،

لكنّهُ دُعاءٌ بِلُغةٍ مُبهَمَةٍ

يَتَحدّثُ بها الشيطان.

تَعرفُ إن الحريقَ الذي سيأتي

مكتبة الفكر الجديد

يجيءُ بَعدَهُ الطوَفان،
وتراهُ الآنَ ثِماراً فاسِدَةً:
تَرى بعَينَيكَ الأوْبِئَةَ واقِفة
راعٍ يقودُ رَعيّتَهُ إلى الذئاب
وكلّ بابٍ موصَدَة على دعاءِ الصلاة،
ومن يُصَلّي الفجرَ
يَخافُ غِياب الزمن.

(٤)

رأيتَ

ما لم نرَ:

رَأيتَ في الضغينةِ حقولاً لا تتعافى
وفي بذورِ الشّرِ
يَكبرُ الأطفال.
يَدٌ من المجهولِ تَمْنَعهم، وأنتَ تعود إليهم عجوزاً من الكهوف.
على ظهركَ المنحني تحملُ كنوزاً
جَمَعتها من السماء.
حينما تخاصمَت الآلهةُ رَمَتْكَ بالهدايا؛
أسفارٌ لمواعيدٍ لا تتحقق
وتداولٌ لِدَعوَة الإثم
يُبَيّنُ لكَ ما في الليل من إضاءات

تشغلكَ الكتابةُ على الطينِ،

مكتبة الفكر الجديد

تأتيكَ وتنهضُ منها السماواتُ، والأنهارُ تفيض.
سماؤكَ رمادِيَةٌ، ونَهركَ المرتجى طافِحٌ بالجثث،
تخوض في لغةٍ أخرى وأنتَ مُتنقّلٌ في الماضي
تمسك بخوفٍ
أصابِعَكَ التبْحَثُ عن الكتابةِ: عِظامٌ ليست لكَ
تختبئ في عشبِ الصيفِ مثل طيرٍ مذعور
وأصابع غيركَ على الفأسِ موشومة
تخفي نيّتها وتنزلُ على الرقبة.
فِخاخٌ هيَ اللغة،
والكلمات التي تنحتها مُكرّرةٌ
ينصبها صيّادٌ مُحِبٌّ للطيور
وأنت قد خبِرتَ
الكلماتَ
هيَ
مُجَرّدُ كلمات،
تمضي بها إلى الممالكِ القديمةِ
ثمّ تُرجعها، إلى الأرض، بالحكمةِ التي لا تجدي.
لكنَ الأرضَ، كما ترى، أرضٌ
وهكذا العناصر الأخرى
لا تتغيّر.
هكذا
الخليقة هِيَ

مكتبة الفكر الجديد

لا تُحَرِّفُ
ولا تُضيِّعُ بالكلمات

---

(٥)

رأيتَ

ما لم نرَ:

(مدينةٌ من حَجَرٍ يفيضُ في كلّ عام نهرها ثمّ يَجفُّ)

(محروسة هيَ بهذا الإدمان المكرر وبتقادم الزمن)

إلى صَحْنِ دارِكَ الصخري لجأتْ ملائكةٌ،

نسِيَها اللهُ أو أهمَلها لِحِكمَةٍ،

أخلتْ قلعَةَ كركوكَ للجنودِ

يَعقِدونَ صفقةً مَعَ التاريخ، يأخذون مخالِبَه،

يَعبرونَ جسرَ المدينةِ الحجري، ليوصدوا أبوابَ «شاطرلو»[1]

مَدخل الجَنّةِ مُغلقٌ

وفي رأسِكَ يَضيعُ ألَقُ المكان.

ترى جنوداً يلبسونَ دروعَ الماضي

يبنونَ القلاعَ

---

(١) شاطرلو، الماز، دامر باش، صاري كهيه، عرفه: أسماء قديمة لمحلات واماكن ومناطق في مدينة كركوك. وتشير أيضاً إلى جذور تركمانية. وقد قام النظام البعثي، وعلى نحو منظم، بتغيير هذه الأسماء، وبإجراءات أخرى في نطاق حملة تعريب المدينة.

مكتبة الفكر الجديد

ثمّ يُهَدّمونَ أسوارَها
مُثقّلينَ بالحديدِ ـ تتلصص عليهم ـ يَحرثونَ حدائِقَ «ألماز»
وفي الفجر، خوفاً من الذئاب،
يَصرخ الموتى على تلّة «دامر باش»
فتحمل لهم رفشاً ليهربَ اللصوص.
بعيداً تتخفى عن «صاري كهية»
وتحوم حولَ «عَرَفَه» المسوّر بالأخضر:
هذهِ أماكن لكَ
تحتفظُ بها، وتحفظها لنا كسوار الذاكرة.

غرباء جاء وا كخيال المآتى؛ عابرو الصحارى ومُهَرّبو الجبال
يخلطونَ الرملَ بالثلجِ
يطبخونَ على نارٍ هادرةٍ
يَتخيّلونَ المُدنَ دَعْوَة وليمةٍ
تعطيهم الحجرَ ومنعطفَ الطريق،
لكنّ المدينة مبهمةٌ
ولها روحٌ تحرِسها الآلهةُ
تخفي عنكَ نهوضها، وفي الأسرارِ ميراثٌ
يُغني العُمرَ
وَيَقي المدينة

مكتبة الفكر الجديد

(٦)

رأيتَ

ما لم نرَ:

من زمانٍ يولدُ هذا الطاعون هنا،

وكانَ هذا الحريقُ دوماً

ذريعَةً للتطهّر

فأرَدتَ أن تأتي إلينا

هارباً

برداءٍ

وبمسوحِ

قِدّيس

غافِلاً بأنّ اليُتْمَ بين اليتامى عواءٌ

ينبعِثُ من نهشِ الكلاب

(٧)

رأيتَ

ما لم نرَ:

(فصولاً مُقفرةً، لا وردة تشعُّ في الذاكرة)

يعيدها الأمواتُ من زمان رماداً، أو

وجوهاً مُبهمةً تنمحي، كما الأشباحُ ؛

بحمى مريضٍ أو مَغتوهٍ بماضٍ

ينسجُ أطيافاً لِمؤونةٍ في المجاعة

مكتبة الفكر الجديد

جئناكَ صباحاً، وفي أيدينا مرافئ للسفر
(كلّ بحرٍ كانَ حديقة لزهورنا الذابلة)
جِئناكَ غرقى بالكحول مساءً
ثمّ هادنّاكَ بالحواراتِ وقت الظهيرة
نحمِلُ ناراً تُوَشّحُ بها غِبطتكَ الأليفة،
فارس الوقتِ أسميناكَ،
وخيولكَ الخيال.

أنتَ هنا، صَحوَةٌ مُرتجى
وأنتَ هناكَ، بالتذَكرِ،
زوّادَةٌ في أكياسِنا. ونحنُ، كما ترى،
نُقلّبُ السيرة وَنعودُ إليكَ خفيّةً
لِنأكلَ معاً فطورَ الصباح.
مِنْ زمانٍ نخافُ معاً
أن يأتيَ الماضي، حاضراً أمامنا،
ثقيلاً نمسكهُ،
ثمّ نفحَصهُ،
غنيمَة من حديد
فتصبَحُ الفصولُ أمامنا مُقفِرَة.

(٨)

رأيتَ

مكتبة الفكر الجديد

ما لم نرَ:
يَمضي الزمانُ بكَ كقطارٍ عتيق،
يُسَيّرهُ اللهُ لكَ بطيئاً
لحكمَةٍ في الموتِ
أو لِنداءٍ من القيامة.
أيّامٌ يُلوّثُ دخانها العُمْرَ، ويوشيهِ بالسواد
مثل راياتِ الخطيئة؛
تُشجّعُ الضرْبَ وتشقّ الصدور.
هيَ عُتْمَةٌ إذاً،
وأنتَ في الظلمَةِ تفتحُ الضوءَ للمشهَد:
ممثلونَ بأقنعةٍ، وحكواتيٌّ، تَحتَ عباءتِهِ ضباعٌ
يَجعَلُ الناسَ في الليل يطوفونَ
عشاؤهم في صُحونٍ من الدم.

ها نحنُ نرى
وأنتَ، أيضاً، ترى
في الضوءِ العَكِرِ طقوسا بأعراسٍ مُلفّقةٍ تقام؛
خِرَقُ أعلامٍ يباركها اللهُ
مَعْقودَة سارياتها بالتعاويذِ لِوَجهٍ يتكرر.
قناعٌ ماثلٌ بالتفويض يباركُ الجموعَ
فيَعودُ الطبّالونَ، هكذا، من البهجةِ
مُتْعَبينَ

مكتبة الفكر الجديد

قادتْ مَزاميرُهم الناسَ إلى البحر غرقى.

(٩)

رأيتَ

ما لم نرَ:

(في عينيكَ الدامِعَتينِ حيرة المعرفة)

الدمُ يوغِلُ في المدينةِ

يغسلونَ بهِ الأمواتَ

ويرتدونَ الكفنَ؛ بُردَةً مُهَلهَلةً من بياض.

البِلادُ مُسَوّرَةٌ

والروحُ فاسِدَةٌ،

وأنتَ، في وليمَتكَ المستمرةِ ساحِرٌ

وحارسٌ للمدينةِ

تُحضِرنا في غفلةٍ من المحاصرينَ.

تحكي لنا عَنِ الخَطايا

وعَنِ العِقابِ،

مائلٌ كفأسٍ

مكتوب على الجبينِ

منذ الأزلْ

مكتبة الفكر الجديد

جان دمّو (١٩٤٢ ـ ٢٠٠٣)

في ذلكَ الزمانْ
كنا نقولُ ونردذ:
هذهِ الدائرةُ اللئيمة مغلقةٌ، مُعبّأةٌ بالضغينة،
مَن يَمكثُ فيها صبيٌ عاثرُ الحظِ
تحيطهُ النارُ وتصادفهُ الفخاخْ

هذهِ
الدائرة أنتَ
فيها

ليست خرافة هي، ولا تعزيمة مشعوذين،
تعرفُ ذلكَ وتتحمّلُ وطأةَ الحصارْ.
أما نحنُ فنتوهّمُ الخلاصَ
ونقدّمُ لكَ النصائحْ،

مكتبة الفكر الجديد

بينما تنصتُ
لنداءٍ غامضٍ يَحملهُ طائرٌ نحيلْ،
سرعانَ ما يفقدُ جناحيهِ الهواءَ
فتوشكُ أنتَ
على البكاء.

أنتَ
تُماثِلُ الأمكنةَ
وتُحَيِّدُ الأزمانَ
فتبتعدْ

رأيناكَ في المحنةِ، وفي الجنةِ غير عابئ،
سكرانا بنشوةِ الدهشةِ
بيدكَ الناسُ والأشياءُ تتماثلْ،
مُزدَوج المرايا تعكسُ فيها صورتكْ:
ترى نفسكَ فيها مُبشّراً
ويجبركَ المَلكُ أن تكونَ الرعيّة.
واهمٌ أنتَ ـ تحترقُ رويداً، وتنتظرُ الخلاصْ،
بلوعةِ عقربٍ مُحاصَرٍ بالنارِ
يلسَعُ نفسَه.

مكتبة الفكر الجديد

أنتَ
في هذهِ القلعة
مسحورٌ

عجائز ثكلى يلغطنَ بالسحرِ وينسجنَ الكلام،
عن مملكةٍ تآلفنَ معها،
يتوسّدنَ الأبناءِ ويُحذثنَ الأشباحَ
عن عرس الليلِ
أمام فانوس شحيح.
غيرُ مجدٍ أن تنفضَ عنكَ البقايا.
كنّا معاً نُطهّرُ الخطايا
نرَتّبُ الكلامَ في الوصفِ
ونصل بهِ إلى التخوم
كأنما الحروف غزاةٌ
برداءِ الريحِ قادمونَ يمنحونَ العطايا
لكن الكلامَ لمْ يهدم القلاعْ.

أنتَ
مدمنٌ على بحركَ
لكنَ الرياحَ غير
مؤاتية

مكتبة الفكر الجديد

رأيتكَ تضَعُ الميراثَ في حقيبةٍ مُفترَضة
وتُسافر في أسماءٍ وأرصدةٍ خالية،
تتنقلُ بها من مقهى إلى مقهى إلى حانة:
أسفارك كتبٌ ومحطاتكَ دهشةٌ
ومريدوكَ، ينتحلونَ البطولة؛
أشباحٌ يستنسخونَ الوصايا
يَحتفلونَ بكَ جهاراً وفي الغيابِ يغمزون،
كأنما يرتدونَ أسمالكَ،
ومن نبيذك يشربون.
تعرفُ ذلكَ
وروحكَ تضحكُ هازئةً بالوجوه؛
جلودٌ مسلوخةٌ وتتجملُ
قبالة اَلوجوه.

أنتَ
في مسوح القديس
صومعتكَ
أنتَ

توبّخُ المشككينَ في القيامةِ
وقيامتكَ مبهمةٌ في زمانٍ لا يتوالدْ
تبشّرُ بالميعادِ (في أرض تطرد الدهشةَ والمخيلة)

مكتبة الفكر الجديد

وتجعلنا نفكرْ:
هذهِ القلعةُ (يسكنها مُحاصَرونَ) موصدةٌ
منافذها بالإسمنتِ، نتخيّلُ فيها:
ممالك تقتربُ بالمُخيّلة
وأنتَ سائحٌ بها. جالسٌ،
نائم؟
حالمٌ
تقتاتُ على ما يستثيرُ رحلة الخلاصْ
لكنكَ تمكثُ في مكانكَ، سيّداً،
واهماً
تخترعُ الأماكنَ
وتبني للناسِ العروش -
هم رعاياكَ عندما يحترقُ جوفكَ
وتدورُ في رأسكَ غيمةٌ ماطرة،
ترتّبُ لهم الأزياءَ
للهزءِ مرةً
وللبطولةِ،
تستحضرهم في حوارٍ دون كلام.

مكتبة الفكر الجديد

أنتَ
في هذهِ الدائرةِ
مُضيّعٌ، دِفاعكَ
الانتظارْ

تخادعُ الزمنَ لتهلكهُ الأيام.
قلنا، نحنُ الذينَ أضاعتنا الدهشةُ:
لهذهِ الدائرة طريقٌ خارجَ سَردِ الكلماتْ
فحفرنا الطريقَ بالمعاول،
وابتعدنا أن نكونَ الكلماتْ
لكنها التصقتْ بكَ
ودمَغتْ مكانكَ
معلقة بجسدكَ النحيل.

أنتَ
لم تغادر نفسكَ
لم تحَلّقْ كصقرٍ
يعافُ الفريسة

كنتَ أميناً على البطولةِ، توصَفُ،
مُنشغلاً بسياجٍ مكهربٍ يحولُ دونَ
أن تصِفَ.

مكتبة الفكر الجديد

دخلتَ الغابةَ المحروقةَ صدفةً
كطائرٍ تحشرَجَ صوتهُ، ظلّ
يُغردُ لنارهِ الخامدةِ كي تتأججْ،
وعلى خوانهِ رمادٌ قليل

أنتَ
رحلتَ والرحلةُ
موحشةٌ إلى
الغياب

بناتُ آوى يرافقنكَ في البراري
وعواؤكَ في الريحِ يضيع.
لم تُبقِ في صحرائك لنا
زهرةَ الصداقةِ متفتحة،
وتلكَ الرقيمات مِن طينِ الأنهارِ
تركتها لغزاً لا تُحلّ رموزه.
ليسَ من العدلِ أن توصَفَ:
قديسٌ مشاكسٌ كتابهُ مُبهمٌ ووصاياهُ قبض الريح.
ليسَ من الحكمةِ أن تُختصَرَ:
صوتٌ أضاعَ رنينهُ في متاهة الضباع
قلنا: أضاعَ نفسهُ

مكتبة الفكر الجديد

كان فتى ملتبساً مرّ كخيالٍ على العصرِ
ولم يقرع الأبوابْ.

مكثتَ
مختفياً في جلدكَ
تتلوّن الأشياءُ وأنتَ
لا تتلوّن

بماذا شغلتكَ القلعةُ الصخريةُ اللئيمةُ
المغلقة
بالأعداءْ
بماذا وَصموكَ ووضعوا في جبينكَ
شارةَ الجنونْ
لنراكَ مُدمناً، في الماءِ تخوضْ.
تريد أن لا تغرقَ
مثل كاهنِ مشاكسٍ
من بابلَ يتهيأ للطوفان.
لكننا عرفناكَ، كما نحنُ،
آشورياً أطفأ جهاراً جمرةَ الماضي
فلم يعد يدفئهُ الرمادْ

مكتبة الفكر الجديد

في غفلةٍ من نوح[1]

«هو الذي مرجَ البحرينِ هذا عَذبٌ فراتٌ
سائغٌ شرابهُ وهذا ملحٌ أجاج»[2]

١ ـ

وددتُ لو كانَ في ذلك الزمان؛
يُؤمَرُ فتصطفُ أخشابٌ للسفينة
مطليّة بالقارِ، تنتظر الفيضان، .
لكنَ هذا الطوفان مُبهمٌ
وليسَ من نوحٍ ينفذ إلى الله ليعرف مَوعد القيامة.

في غَفلةٍ من نوح هذهِ المرّة،
وفي مياهٍ مبهمة الروحِ؛ بِحارٌ سافلها الظلمات،
من منافذها، دونَ رتاجٍ، تصعدُ

(١) كتبت القصيدة إثر غرق ٣٥٦ من المهاجرين العراقيين أمام سواحل جاوه في سفينة مهربين تأخذهم إلى استراليا. وفي عرض البحر تحطمت السفينة فلم ينج منهم، بعد ٣٠ ساعة، إلا بضعة أفراد.

(٢) هناك تضمينات في القصيدة من ملحمة كلكامش ومن القرآن.

مكتبة الفكر الجديد

أمواهٌ، وإعصارٌ يلعبُ بِمن عبثَ بهِ،
ليسَ ثأراً، ولا الأقدارُ هكذا،
إنما جَمرة الخيبةِ في القلبِ تقودُ،
ثُمّ تحترقُ حتى الرماد
وما من يدٍ تحملها وتُبرّدها
لتصيرَ زهرةً
للعبور.

في غفلةٍ من نوح،
ذهبتَ بعيداً عن فم الأنهار.
وما عَبَرَ هذا البحر من قبل أحدٌ
ولم تنج سفينةٌ في حمأة[1]،
لكنكَ تبعتَ الوميضَ والشمسُ قد غرقت
فانشطرتِ السماءُ عن عرباتٍ وخيولٍ، تهشّ السُحُبَ
وتعاقبُ مَن يسافر.

ها أن الغمرَ مُكتملٌ؛
الحمامةُ الآتيةُ من الإثمِ على الساحلِ شرعتْ تنوح:
لا أحد هنا، غيرَ الصيّادين،

(١) حمأة: جاء في القرآن (الشمس وجدها تغرب في عين حمأة) أي في عين من الماء والطين الأسود النتن، كناية لموضعٍ تغرب فيه الشمس ـ في قصٍ عن اسكندر ذو القرنين.

مكتبة الفكر الجديد

أرى النوارسَ غرباناً تحطُّ على الجثث؛
واحدةٌ طافيةٌ مجدولةٌ بالخشَب
والأخرى تشدّها الأشناتُ بالأخرى، على مقربةِ طفلٍ غريق.
البحرُ حلبة أسودٍ تطلقها المواعيدُ للفريسة،
والرياحُ شِباكٌ للطريدة.
تَعدّ الأنواءُ في حصونها ضحايا الرُماة.
أسرى البلادِ مئاتٌ ومئات
ضحايا البلادِ مئات ومئات
والطريقُ من بابل إلى أور طويل.
سور المدينةِ مُغلقٌ
والوهمُ ماءٌ معبّأٌ
في حدائق الرؤوس.

٢ ـ
لم أكن معهم
لكنني عرفتهم من ثقل الميراثِ،
فجاءتني الرائحة من نبذ الخطيئة،
من لعنةِ الأرضِ ومن توارث التواريخ:
ندبةٌ سوداء في الزمن
تكرّرُ المكائدَ،
كما الثعالبُ، مرارا، تستدرجُ الضحيّة
بوعود الصداقة.

مكتبة الفكر الجديد

أعرفهم، من نبأ الجريدةِ، منفيّينَ في البلاد،
طُردوا من الحجرةِ المضيئةِ ليلاً،
يخبرني عنهم وجهٌ يُرَوّضُ العواطفَ، ويقول:
مهاجرونَ خُدعوا،
مُسوّرونَ بالموتِ هنا، كما هناك.

رأيتُ صيّادينَ يصطادونَ جثثاً طافية، وحيتاناً تحتفلُ،
أطفالاً
وآباء
وملابسَ،
غرباء عن بعضهم؛ زَبَدٌ راحَ هباء.
حلموا مرةً في البحر الأخير،
أن تأتي السفينةُ على جبلٍ
ليكون لها مستقر أمين.

٣ ـ
ليسَ للوقتِ وقتٌ ليتمهل،
كلٌ في عَجَلةٍ من أمرهِ، مسرعٌ،
لِئلا شفرَة الصبحِ تذبحهُ وتذبح الظلام.
حَارَسُ الحدودِ مرتشٍ، يغمضُ عينيه،
والدليلُ يَرصدُ خلفَ الغيمةِ القمرَ.
المهرّبُ يضعُ النقودَ في صرّته،

مكتبة الفكر الجديد

والسفينةُ تشرعُ خِرَقها أمام الريح،
ذلكَ هو القبطانُ، صديق المعابرِ، ثَمِلٌ لا يُحصي المسافرين
والمقيّدونَ بالحلمِ، بسلاسلِ الوعدِ وبقطران الذكريات،
يهرعونَ من الماضي، يحملونَ الماضي في زكيبةٍ،
يرحلونَ إلى مدينةٍ، تلو المدينة،
إلى القرى، نحو الساحلِ، قبالة البحرِ العظيم.
يُقوّلونَ ذلك الماضي؛ أمثولةً للخلاص:
تموزُ أمضى نصف عمرهِ في المنفى
إبراهيمُ رحلَ إلى أورشليم،
ومن عاشَ لعنةَ القلاعِ منفيٌّ
في العالم السفلي، لا يبصرُ غيرَ الظلمات
غيرَ أن بابَ الموجِ مفتوحة كالمغارة، وقعر الماءِ مثوى.
في قاع البحر قِطعٌ من نقودٍ وصورٌ للبلاد،
وذلكَ الوعد للهجرةِ فاسدٌ
ومن تطهّرَ بالماءِ الغريبِ المُملّحِ
ليست له
مملكة.

٤ ـ
لم أكُن مَعَهم
لكنني واحدٌ منهم

مكتبة الفكر الجديد

في مكانيَ الأول تسامحتُ
نَزَلتُ النهرَ شريكاً معهم في العمى.
لم أرَ الموجةَ الصغيرةَ في تيارها العميقِ تتعالى،
فتَخيّلتُ المدينةَ مدينةً تؤسّسُ نهرها. ساهٍ أنا
عن البيوتِ والغرفِ، وعن النوافذِ
خلفَ زجاجها وجوهٌ ترتعد ـ
كلٌ يرى منها نجمتهُ
في السوادِ تلتمعُ.
تخرُّ الشُهُبُ
ويكثرُ
الموتى
في نهرِ
مزوّر

٥ ـ
واحدٌ منهم أنا،
لم أحذّرهم من الذئابِ
تطوّقُ الطريد، ومخالبها مدماةٌ،
ومن القراصنةِ يرفعونَ أعلامَ الموتِ،
ينادونَ الأعاصيرَ،
نغرقُ بها.

مكتبة الفكر الجديد

أجسادنا بيضاء مُملّحة،
تطوفُ كشعبٍ
من الكبارِ والأطفالِ،
مثل زهور البحرِ
تصالحتْ
مع المياه.

٦ -

ها هيَ مملكةٌ تقفلُ الآلهةُ السبعة أبوابها وتطوفُ في بواديها الضواري، ثمّ تصرخُ بوجهِ تموزَ: أيها المغتصِبُ غادر المدينة، نحنُ الواهمون لا نملك الأرضَ ولسنا ملوكاً أو آلهة. نحن المتوارثونَ اسطورةَ النجاةِ لم نجادل الزمنَ ولم نكشف عن وجهِ ما حُجِب منهُ، بل عَبّأنا في الزكائب ذخيرتنا وأنهينا الحيرةَ لنرحل. كنّا على يقينٍ بأن الزمنَ زمنٌ، كما خبرناه؛ مثل الطريقِ، نعرفُ حجارتهُ ونرى انحناءهُ ونمشي انعطافتهُ، متلمسين فيهِ المعالم. مشيناها قوافلَ، ظننّا مباركة هيَ من الآلهة، تقودنا إلى المستحيل، لكنها جاءت سبياً لا تحمل النذور. نحنُ بناة الحصنِ والقلاع نشيّدُ بابلَ ونترك الجثثَ والحجارةَ هناك. تبصِرنا الآلهةُ فترسل الشموسَ دوننا للأفاعي. كأننا حواةٌ، نأتي من السهول والأحراش، ننزلُ من التلال. كل واحدٍ في كيسهِ سُمٌ وفي يدهِ زرقة الخَدَر يوخزُ بها الوريد.

مكتبة الفكر الجديد

مغلقةٌ بوابات المدينةِ بوجوهنا، محاصرةٌ هيَ مرتين؛ نسمّيها شروباك[1] ـ بغداد مرة، وقد تقادمَ عليها الدهر، ومرة أخرى نسميها الزهرة المدورة. وَجْهُنا بترابها مُعفرٌ، غائرٌ معجونٌ بالهموم. مدينة ملحٍ هيَ مدينتنا، فاسدةٌ لا يغسلها المطر. ذئبٌ يصعدُ زقورتها، والكلاب تقتات على الجنود. حروبٌ وطوفانٌ، لكنّها ليست هي الندبةُ في القلبِ وإنما قلبٌ بالفأسِ مثلومٌ مرميٌ للكلاب. هكذا أرادت الآلهةُ؛ في عرشها ترسمُ وتَبصمُ وتضحكُ لتتسلى، ثمّ تخلّفُ لنا ملوكاً ينقشونَ لنا المراسيمَ ويخترعونَ طقوساً للقدر. نحنُ الممثلونَ، مرّةً دونَ قناعٍ، خارج الستارةِ وقفنا، ومرّةً قبالةَ البحر انحنينا، أمام كرسي العرشِ في الماء نرتجف.

ـ ٧

لنا الإرث في خِزانةٍ مغلقة
ويأتي الموروثُ مثل ينبوعٍ يغذي الذاكرة.
ترسمُ الخيبةُ فينا كثرة التحوّل.
أبطالٌ عمالقةٌ، سحرةٌ وقدّيسون
نتطابق معهم، ونخالفهم، مثلما نريد، وحسب ما نظن؛
شفاعةٌ هُمُ الأسلافُ، ذريعةٌ وفقَ هوى القلبِ في دورتهِ

---

(١) شروباك: من المدن السومرية الشهيرة، موطن (اتو ـ نبشتم) بطل الطوفان. كانت الآلهة تحكم في شروباك وبيدها الملوكية. صعدت إلى السماء قبل بدء الطوفان ثم عادت إليها بعد حدوثه. وجاء في كلام (أتو ـ نبشتم) إلى كلكامش: سأكشف لك عن سر محجوب... شروباك المدينة التي تعرفها قد تقادم عليها العهد... الخ.

مكتبة الفكر الجديد

مثل فصولٍ في الزمانِ، أو مثل كتابٍ مُهَلهَل،
نُجلِسُ المثالَ فيه على عرشٍ
والحروفُ تتنكر،
دونَ أن نتفكّرَ في الكلماتِ نقرأ الوصايا
هكذا، نتوسّلُ بالغيبِ وفي وعائهِ
عَلَقٌ في القلبِ يبقى
فيأتي إلينا
نبيّ مزيّف.

٨ ـ
لنكن مثلهُ
رَمز شراكةٍ، وذخيرة للسفر.
يذهبُ ويأتي، حكيمٌ أو مهرجٌ، يطوي في حلمهِ البلدان.
سيانٌ، طالما هِجْرَته وميضٌ، وليلنا معتمٌ دليله الهذيان.
سندبادُ يَمسّنا بجمرهِ،
والحريقُ في الليل إشارة.
سندباد، بطلنا، مؤجِر المواني،
شاري الجزر،
يملكُ من صُدفةِ السفنِ والأشرعةِ ما لا تملكها مملكة.
سفنٌ تُسيّرُ لها الريح، ويُوَجّه بها الاتجاه.
رجلٌ لا يركن إلى مكان،
في جوفهِ بركانٌ من التجربة،

مكتبة الفكر الجديد

صاعداً نازلاً جبالَ الكنوز، يغرفُ منها،
يوزّع النور على الظلمةِ
معهُ القدر ينبوعٌ متفجّرٌ، وبيدهِ مفاتيح المصير،
محالٌ هوَ إلى الخصبِ دوماً، معاندٌ
يشفُّ بعينيهِ الكبيرتين، في الصحارى، عن مدنٍ من عقيق.

موقوفاً كانَ سندبادُ في قلعةِ المدينة
ورماح الرماةِ إلى صدرهِ تُصَوّبْ،
لكنهُ فتحَ سورَ المكان في السفر، وطوى المغامرة
إلى المجهول، ثمَّ ودّعَ النفسَ منكسرة.
كِسْرَة خبزٍ في صَرتهِ
وفي رأسهِ أحلامٌ؛ زؤادتهُ للتجوّل.
جوالٌ هوَ في البقعةِ المسوّرة
يجترحُ المعجزة
يذهبُ
ويذهبُ
منها
إلى
كلِّ
مكان

مكتبة الفكر الجديد

٩ -

في ذلكَ الزمانْ، والبلادُ غير مسوَّرةٍ، غفا أنكيدو،
له الأرض والسماء. شعبه القطعان يناغيها،
يغرفُ من النهرِ،
في حقويهِ ريحانٌ وعلى جبينهِ ينبوع ماء.
ما مِن افعوانٍ يحجبُ عنهُ التيّارَ
ولا مشيئة تبصرهُ النهاية،
ولكن، فجأةً، من رجفةِ البرقِ على الجسدِ،
مسّتهُ المعرفةُ، وعضّتهُ بأنيابها.

بلا حروفٍ، ومن غيرِ صدى الكلامِ،
فسّرَ لنا الحياةَ، واضعاً لها الأوقاتَ من غيرِ تصالحٍ،
كحدِّ الشفرةِ يواجهها، حتى يشخب الدمُ
أو تفقسُ في العيونِ الديدان.

لم يكن قدراً
أن يواجهَ المدينةَ، يختبرها،
ويملأ نهرَها
ثمّ يترك ظلّهُ ماثلاً على الحصى
ليتَنقّلَ
من مكانٍ
إلى مكان

مكتبة الفكر الجديد

أنكيدو
كائن الأرضِ والسماء
فاتن الأرضِ والسماء
يرى الموتَ يخافهُ
يحبّ جسدهُ،
واهناً مرّةً وقوياً في مرّةٍ أخرى،
يسدّ المنافذَ بالقوة:
يمسُّ المصائرَ؛ وجههُ في وجوهٍ مبهمة،
معهُ الرعية تتماهى، مدركاً تماثلها،
له «أور» أيضاً، هكذا رسمَ القدر،
لكنَ أنكيدو، واضعاً قلبَهُ فوقَ يده
ـ فسّرَ الريحَ برجفة الغاباتِ، والأعشابَ بالثأر المقدس ـ
مضى عاشقا لا يتحدثْ
يَصنعُ من الأخشابِ أبوابنا،
قوياً يصارعُ الموتَ
والموتُ أمامه.

عاشَ أنكيدو
ثمَّ ماتَ أنكيدو
مُفسِّراً الحالةَ بالحالةِ
تاركا لنا الحيرةَ:
لِمَ جيوشٌ تقاتلُ جيوشاً

مكتبة الفكر الجديد

ونحنُ عدّة المعركةِ
نهرب منها
أو
نندَحرْ

١٠ ـ
هكذا هوَ سِفْرُ الزمانِ ملحمةٌ وغبار،
ربما، في الأغلبِ، موعظة
تكتبها الأقدارُ على لجّةِ الموجِ، والماءُ تَطهّرٌ وغَرَق.
ربما يأخذنا كلكامش
بعد أن أحبّ أنكيدو
إلى طريقٍ قديم،
قبلَ أن يمشيهِ أحدٌ حتى النهاية.

كلكامش يُذلّنا
كلكامش يدلّنا
على تلكَ الديدان في العينينِ والجسدُ يتفسخ؛
مرثيّة يكتبها، وتعويذةُ مشعوذٍ
نشربها، ممزوجة بالصحوَة، كلّ صباح.

كلكامش
هارباً من وجوهنا إلى البراري،

مكتبة الفكر الجديد

يَحْزمُ صرّتهُ، ممزقاً خوانَهُ، مُهدّماً داره
يوقدُ ناراً لبلادٍ بعيدة،
مطلقاً أسماكهُ الفضيّة من جدائلهِ
يأخذها إلى المجهولِ معه،
ونحنُ بغفلةِ التوارث نسمّيهِ الخلوذ
لكنهُ يعودُ بعمرٍ، على أية حال،
لِئلا يرى العالَمَ
مكرراً
ويلمس الموتَ ـ في مضجعهِ يقيمْ.

ذهَبَ كلكامشُ صَوبَ الحِكمةِ
يستبدلُ البحرَ بباب المملكةِ
مُقايضاً المُلكَ بالماءِ
مُدركاً
أن البحرَ حسابٌ
ومَنْ لا يعودُ منهُ
خَسِرَ الرهان

١١ ـ
في هذا الزمانِ، يسهلُ كلّ شيء.
أن تبقى أو أن ترحلَ،
رفاصُ ساعةٍ أنتَ في المساحةِ الضيّقة

مكتبة الفكر الجديد

يَتكُ في مكانه ويَتكَ.
الباب التي دخلتها تخرجُ منها
والطريق الصاعدة التي مشيتَها تخطو عليها في النزول.
مسافةٌ ضيّقةٌ للعمرِ تضيقُ وتضيق،
لكنَّ الآلهةَ سلّمتكَ منظاراً
توهمُ به المسافة
وتقترب من المكان ـ إلى البحرِ،
إلى المدنِ، إلى الأنواءِ إلى
مشارفِ نائيةٍ. إلى بلاد
بعيدةٍ، في المحيطاتِ
بحيث
أنك
لا
تعود منها
إلاّ جثةً
أو في كيسكَ الخلود
وقد أخَذَهُ
الموتُ
مِنكَ
غفلَةً وخدعة

مكتبة الفكر الجديد

سُفنُ المحبَطين

ذاهبون إلى البحرِ مملكتهم صغيرة
ذاهبونَ إلى البحرِ طريقهم ضيقة
ذاهبونَ إلى البحرِ مجرّدونَ من الرؤيةِ،
في رأسهم تلتمعُ اللآلئ

ذاهبونَ إلى البحر ذخيرتهم أوجاعٌ يحملونها لتسكنَ في المياه
صوبَ البحرِ ذاهبونَ والمياهُ واسعةٌ تثيرُ المخيلة.
العمرُ في البلادِ موقوفٌ على ما سيأتي:
وشمٌ أو ندبةٌ تذكّرهم بالماضي
وكلّ ما هو ماضٍ ربّما يتبدلْ.

ينزلونَ إلى البحرِ بسلالٍ فارغةٍ من اليقين،
الموانئ بعيدةٌ مبهمةٌ، وللأنواءِ مزاجٌ
كحجرِ القيامة.
ذاهبونَ إلى البحر والبحرُ دفّانٌ بكفنٍ من زبد.

مكتبة الفكر الجديد

هكذا. . . نُشِرَ في الخامس عشر من أيار ٢٠٠٦ خبر العثور على ١١ جثة متيبّسة مقعيّة في قارب صغير، ينقل مهاجرين من السينيغال، وذلك قبالة البرازيل. وكان القارب قد لوحظ صدفة في نهاية أبريل على سواحل جزيرة بربادوس، غرب المحيط الأطلسي. وأذاعت الأنباء إن القاربَ كان قد جال في البحر طوال ثلاثة أشهر وقطع حوالي ٥٠٠٠ كيلومتر قبل العثور عليه واكتشاف الجثث المحنطة فيه. وتوقع المحققون الذين عاينوا القارب بأن حمولته كانت في الأصل ٣٧ راكباً، وربما سحبته سفينة أكبر من منطقة كاب فيردي ثمّ تركته لمصيره في عرض البحر.

تبحرُ يومياً عشراتُ السفن والقوارب من بلدان في أفريقيا وتركيا لتصل سواحل أوربا وبخاصة إلى اليونان وإلى جزر الكناري، حاملة على متنها المئات من اللاجئين الأفارقة وغيرهم. ومعظم هذه السفن تتحطم وتغرق أمام السواحل من جراء العواصف أو التلف أو من زيادة الحمولة، أما مَن يحالفه الحظ فيقع بيد خفر السواحل ليعتقل ويُبعد في البداية كان اللاجئون ينطلقون من السواحل التركية إلى اليونان، ثم من المغرب إلى أسبانيا، ومؤخراً وسّعوا مناطق إبحارهم شمالاً من موريتانيا والصحراء الغربية حتى غينيا بيساو. لقد راحت حتى الآن عشرات الآلاف من الضحايا غرقاً، فيما تنتظر عشرات الآلاف الفرصة السانحة للإبحار وصولاً إلى ما سميت بـ «الجنة الأوربية». ودوماً هناك قوارب خشبية ومطاطية وسفن عتيقة غير مجهزة، وكذلك حاويات معدنية وناقلات شحن البضائع، يستخدمها مهربون يتقاضون مبالغ طائلة لتهريب أولئك اللاجئين في رحلةٍ إلى المجهول.

مكتبة الفكر الجديد

/ المخيلة

مُجرّد ظلٍ هو المُبحرُ شمالاً
حمولته أقنعةٌ مُزيّفةٌ من أفريقيا،
يريد بها أن يسحرَ الجالسينَ
في شرفاتِ المنازلِ يتدفئون من البرد،
يطمحُ في سفرهِ مُصالحَة الماءِ والريح.
إبحارهُ ماكنة أسئلةٍ تدورُ فلا يبتهجُ بالوسع،
بل يبقى حارساً لهدأةِ الطبيعةِ واختفاء اللصوص.
رجلُ بحرٍ مطيع هوَ، يمخرُ في الليلِ
ويهابُ من كثرةِ الضياء.

حمولةُ السفينةِ ـ مَن تحرقهم الشمسُ المالحةُ،
بطونهم فارغةٌ وأجسادهم مرتعشة،
يبحرونَ ـ قبلَ أن يبحروا ـ في غرفةٍ،
يُسَيّرونَ القواربَ في أزقةٍ ضيّقة
كي يصلوا بيتاً، يطلّونَ مِن نوافذهِ
على أعراس في المدينةِ،
أو هكذا هم يتخيلون.

. . . . . .

مكتبة الفكر الجديد

٢ / سيرةُ بَحّار

البحّارُ الجديدُ مملوكٌ، كما في الماضي،
لملوكِ الرسّو، تاجرٌ يشتري البحارَ
ثمّ يرسلُ رعيتهُ المنتظرة إلى جزرٍ بعيدة.
له سفنٌ
وقباطنةٌ
وسواحل متحفزة ـ هكذا عرفناهُ في سالف الزمان.
سَيِّدٌ يُبدِّلُ وظائفَ السفنِ ويغيِّرُ مساراتها،
مُحَمّلة بالبخورِ والعبيدِ، مدرّعة بالمدافع
تهدِّمُ الأسوارَ وتقيمها،
تخفقُ راياتها المهلهلة،
تخافُ القراصنةَ فتبحثُ لحمولتها
عن مرفأ آمنٍ بين الصخور.

سفنٌ، ورأينا الآنَ مَنْ يبحرُ بها مِنَ اليأسِ
ومَنْ تتدافعُ فيهِ الأفكارُ
يبللُ قدميهِ في مياهِ البحرِ، مُسرعاً
يلعقُ الملحَ.
زاده للرحلةِ الطويلة المبهمة،
ينادي المجهولَ
ليحضر إليهِ

مكتبة الفكر الجديد

طائعاً،
أو هكذا يريدهُ مبهماً ليُفسِّرهُ كيفما يشاء.

. . . . . .

٣ / سَردُ الأحداث

تنسجُ العناكبُ في الليل شباكها وتنتظرُ
جذلة ما سيدفعهُ الحظ إلى المأدبة.
ليسَ هذا في الأخبارِ، كما تصلنا عن خيبة الوعود،
عن بُقعٍ في ليلِ المتوسطِ مرصودة بالطائرات،
والأطلسيُ مبهمٌ، شاسعٌ، فيهِ بوابة الجحيم.
ما يقالُ لنا رَغوَة تقيِّمُ بالنقودِ:
ألف دولارٍ ثمن سفرةٍ إلى الجنة، طريقها برزخٌ من الماءِ
والإبحارُ إليها مسيرةٌ في المجهول.
لا تقول لنا الأخبارُ عن المحبطينَ
وعَنْ مَنْ لا يعرفُ البحرَ ـ مزاجَهُ، عناصرَهُ المبهمة، زبدَهُ الكاذبُ،
أوقاتهُ غير المنضبطة،
فيُلقي على السماءِ تبعاتَ رحلتهِ
كأنّ الله نوتيٌ يديرُ المراكبَ بخنصرهِ
ويُبتدعُ جزراً تشبعُ المخيلة.

مكتبة الفكر الجديد

ليسَ في قولِ مَنْ يسردُ شيئاً مؤكداً،
والكلمات عن المسافرينَ ضيِّقةٌ؛ مجردُ قشورٍ لثمارٍ
رماها البحرُ على الرملِ
لا تنبتُ سمكةً أو شجرة،
تذريها الريحُ خارجَ المسالكِ، في الجزرِ المرصودةِ بالحراسْ،
تدورُ عليها الطائرات فترى مداخلَ الأطلسي
مغطاة بالجثثِ
فتحصيها بالأرقام.

. . . . . .

٤ / أخبارُ العبور

نواياً العبورِ مختزَنة في قلوبٍ يأسرها الغيبُ ويلوّن الاختلافُ مشاريعها. العبورُ تَبدّلٌ يحفرُ قناةً إلى بحيرةٍ راكدة، فيما المغادرةُ خروجٌ من رهن المكانِ؛ كالمشي الطويل تاركاً خلفهُ ما لا يَرى، ويتركُ وراءهُ ما سيرى، متنزهاً، مندهشاً لا يوقفهُ الزمنُ ولا تعترضهُ العوارضُ. أمامه حواجزٌ شفيفةٌ يزيحها. يدُهُ تمسحُ صباحَ أفريقيا من الضباب.

الذهاب المنتظرُ سِرٌ مُغلّفٌ بالخصوبةِ، تُضيّعُ الحيرةُ مفاتيحَه. ومَن يُحوّلُ الزمَنَ إلى علاماتٍ ينسى التفاصيل ويختزل.

لكن ما يُدوّنُ عن العبورِ، ونقرأهُ، مجرد إشارات ـ سرد أحداثٍ وتثبيت أرقامٍ توصِفُ الحدثَ بالعبور المحبطِ ـ لمن يرى العابرين ولا يعبرُ.

مكتبة الفكر الجديد

ينطوي على سخرية، يَتهمُ الذي يمشي أو يطوفُ على الماءِ بأنهُ نبيّ كاذبٌ، أو انه نسى النبوة فلفق جزراً يوعدَ بها فتح باب الجنة للخائبين. هو ابن ضالٌ منسلخٌ عن المكان، مشّاءٌ في ليل الغاباتِ لا يعرفُ متى يسقط في الفخاخِ المنصوبةِ له وتدميهِ مخالبُ النمور.

ربما يَستحسِنُ مَن يصفُ الوصفَ فيبتهجُ. ينظر إلى غيرهِ فيرى نفسه يختلف عن الذي يبحرُ في المجهول دون أن يتيقنَ من التفاصيل، كأنما يريدُ أن يمجّدَ اختلافهُ ويقرَّ بميراثِ حيادهِ.

من يرسمُ الحيادَ ممنوحٌ للتاريخ مصاغٌ بهِ، كنهرٍ مخلصٍ لضفتيه، يحفرُ هنا ويضيفُ هناكَ رسوباً، لكنها ضفتيه، وسيأتي الفيضانُ يوماً ويخرّب السدود. ما سيبصرهُ مختلِفٌ، بينما يتحسسُ ما في داخلهِ ولا يفسّرُ ما في الخارج:

ممنوحٌ مندهشٌ من الاختلاف،

فرحٌ بهِ، مغتبط،

تأخذهُ الدهشةُ يؤوّل ما يراه:

حيتانٌ بأسرارٍ بهمةٍ لربما تندفعُ بأنواءٍ غير مواتيةٍ فتنتحرُ على شواطئ مجهولة. لكنها تُجَرّبُ فتمتلك البحار. والبحارُ لغزٌ لا تقهرُ بالبوصلة.

. . . . . .

مكتبة الفكر الجديد

٥ / المهاجر

للمهاجرِ بحرٌ مؤقتٌ تشربهُ الصحراءُ وتحيلهُ سراباً يبتدعُ بهِ الممالا
والجسورَ، يحكي الأساطيرَ عن بُناةِ الحدائق والقلاع، ما عادَ له طو
سرّيٌ أو قناعٌ منسيٌ في خرجهِ يحاورُ بهما أسرارَ الزمنِ وينضّد بدعا
الأحداثَ فيعبئ بهِ عواطف الأحفاد. ترك الحفرةَ في بيتهِ، براعم
مؤجّلة، لتتفتحَ ما بعدَ السنين.

أما الصخورَ فيعرفها مكتفية بالمكان
لا تهاجرُ،
تحركها الريحُ قليلاً
ويغسلها المطر.

للمهاجر موهبة الفجرِ يطلعُ كلّ صباح، يعارضُ التأويلَ، قبالتهُ الضو
يكشفُ له المعالمَ البعيدة. متوجسٌ من التوقفِ يقلبُ الأحجارَ ويو
النيرانَ على قرع الطبول.

. . . . . .

٦ / المرفأ الأول

الطقسُ مواتي والريحُ شمالية،
الوقتُ ضيّقٌ والريحُ جنوبية،
أشباحُ الليلِ ملائكةٌ تقذفُ الشهبَ وتنظم النجوم.
غزيرةٌ هي العلامات مترعة بالوعود

مكتبة الفكر الجديد

توسّعُ الرؤية
توعزُ بنشر القلوع
وعلى بركة الله.

هنا، في المرفأ، قلبٌ جَذلٌ يدلكهُ الوعدُ
وهناكَ مَن ينوحُ للغياب،
لكن الحكمةَ تقتضي أن يُفسَّرَ الحدثُ بالقدر،
وكلّ توجسٍ بالخسارةِ يُرَدّ إلى المصير.
هكذا كانَ الموتُ والطاعونُ والجرادُ وحريق القرى
كلّ عامٍ يكشفُ عن وجههِ بأقنعةٍ سوداءَ
لم تعد تجدي اليقظةُ، ولا الطبول توقظ البهجة.

الطقسُ مواتي يَشفُّ عن رمل السواحلِ في المخيلة
ليشعّ بموهبة الحنين. لا شيء إلاّ الجنة قريبة من الموج المتلاطم.
القاتل المفترضُ ـ وباءُ الخساراتِ الآتية ـ متسترٌ
والبحارةُ شهودٌ، والنظارةُ من الغرباءِ وحرس الحدودِ يكتبون:
المغامرةُ غير محسوبةٍ
والسفنُ زبدٌ على الموجِ
يلعبُ بها مزاج
المياه.

. . . . . .

مكتبة الفكر الجديد

٧ / أرقام

مرة أخرى تبحرُ المراكبُ ـ سفنُ المحبطين .

١٣ من ركابها نقدوا حياتهم ليصلوا بالسفينة إلى الجنة ،

ولم يصلوها .

سفرة المهاجرين ، عبر المتوسط إلى سواحل اليونان ، تكلف ٠٠٠ دولار .

ويزيادُ عدد المهاجرين الذين تحرقهم الشمسُ ليقايضوها بالثلوج ،

يشترون بنقودهم زبدَ البحر ويتدثرون تحتَ الأمواجِ بأسمالهم وحنينهم

وإذا ما شعروا بمرارةٍ فذلكَ موكول للقدر

وكثيرا ما يُرَدُّ للمصير

ويُفسَّرُ بسوء الصُدَفْ

ثمن الركوب في سفن صيد أو في قوارب عتيقة ،

هو نفسه ألف دولار ،

وسوف تدفعها ريح الله إلى المرفأ المشع ،

ولا بدّ أن تأتي تلكَ الرحمة المنتظرة ،

لا بد من مزحةٍ

تحيل العواصفَ

إلى سلام الروح

فترسوا السفنُ أمامَ المناراتِ الرحيمة .

مكتبة الفكر الجديد

لا تصل السفرةُ غالباً نحو غايتها، بل ترحلُ إلى الموت،
تهدهدُ الأمواجُ الأجسادَ الطافية وتداعبها الأسماكُ.
يصفها خفرُ السواحل: سفرةٌ نحو المجهول،
بالضبط كما حدث في أول يوم من أيام أعياد الميلاد.
ليس في ذلك اليوم قداسة تتطلبُ إقامة الطقوس والتضحية بالقرابين.
قديسو العقيدةِ مرابون،
والكهنةُ مهرّبونَ.

. . . . . .

٨ / مهاجرون

لم يعد ثمة احتفالٌ بانحسار المطر، والأقنعةُ المحتشدةِ بالسحر الغامضِ استبدلتْ بالمعادن اللدنةِ ثمّ تناثرت بين أسوار المدن المهدمةِ. تعصفُ الريحُ والنارُ بالهشيمِ والناسُ يرحلون. علاماتٌ وإشاراتٌ للقيامةِ تدفعُ الناسَ إلى الموانئ. مسافرون من الشمال يقرأونَ مراثيهم ويُرتّلون صلواتهم ثمّ ينكفئون، كما الطيورُ تعبتْ أجنحتها؛ أعيتها الخرائط فتوقفتْ عن الطيران.
مهاجرونَ من الجنوبِ تحرقهم أجسادهم، وفي روحهم التباس مبهمٌ، يحملون مرآةَ غيرهم، يستحضرون الفصولَ وينتقونَ أفضلها.

في كلّ ربيعٍ يخرجُ من باطن الأرض جرادٌ

مكتبة الفكر الجديد

يريدُ أن يعبرَ البرزخَ ويطير فوقَ المياهِ مغتبطاً،
إلاّ أن الريحَ غير مواتية
والزاد قليلٌ
والهواء قليلٌ.

تلكَ وقائعٌ إبحارٍ مثبتة في سجلاتِ حرس الحدود،
وتفاصيل موتٍ حشيت في الحاسبات.
خبرٌ في صحيفةٍ. شريط حدثٍ لبضع ثوان:
كاشفات الضوء في الليل تمرُّ على أجسادٍ مبللةٍ ملقاةٍ
على الساحل. أجسادٌ منتفخة، عارية القدمينِ،
مغطاة بملاءةٍ من البلاستيك، مركونة على الرصيف.
موتى ـ هم مجرّد أرقام في سجل،
يأتي الغدُ
فيُنسى فائض
هذا اليوم.

. . . . . .

٩ / هدفٌ آخر

في قارب مطاطي طوله سبعة أمتار، حاولت مجموعة من المهاجر الإبحار من الساحل التركي لتصل إلى سواحل اليونان. لكن القارب

مكتبة الفكر الجديد

يصمد أمامَ عواصف البحر فانقلبَ. أنقذ خفر السواحل ١٢ راكباً حجزوهم. وكانت خمس جثثٍ طافية على الماء، ولم يعد ثمة أمل في العثور على الآخرين.

في ليلة الميلاد، قبالة سواحل جزيرة «كورفو» بعثتْ سفينة تحملُ ١٦٠ راكباً نداء استغاثة، ثمّ غرقت. وقبل اسبوع من أعياد الميلاد، غرق ١٠ أشخاص قبالة ساحل «أنيبوا»

٨ سفن لتهريب البشر، أو هكذا سمّيت، ألقتْ سلطات خفر السواحل اليونانية القبضَ عليها. ٤١٠٠ مهاجر غير شرعي وقع بيد السلطات. قالت تقاريرها بأن ١٥٠ مهاجراً غرق في مياه البحر.

معركة البحرِ لا يقودها الشيطانُ لينسجَ بها الأساطير.
ساحة الحرب قائمةٌ منذ الأولينَ:
رغبةٌ دفينةٌ ومشيئةُ شهوةٍ
تُدخِلُ المُحِبّ الغابةَ الغامضة مسكوناً بالأثر،
يَسمعُ صوتهُ وئيداً،
ثمّ يعلو كزئير يناديه،
تقطعُ فأسهُ الأشجارَ ليصلَ، فيسيل دمه.
صوتٌ من الماضي يكررُ النداءَ، فيمشي
حاملاً تعويذةَ الخلاص.

ثلاثة أهداف تمضي نحوها السفنُ المحبطة من شرق بحيرة إيجه:

مكتبة الفكر الجديد

من حدود استانبول الكبرى، عِبرَ بحيرة مرمره والدردنيل إلى جزيرة اسيوران اليونانية ثمّ إلى اويبوا.

من ساحل إيجه التركية إلى قبالتها جزيرة جيوس اليونانية، والى جزيرة ليسبوس وساموس.

من الساحل الجنوبي التركي نحو كريتا ومن ثمّ إلى إيطاليا.

سفرةٌ إلى المجهولِ ؛

رحلةٌ إلى جنةٍ

متخَيّلة

. . . . . .

١٠ / أنباء البحر

مَن لا يعرفُ البحرَ يخالهُ رؤوفاً

يَمتدحُ سَكَنته فيسهى عن خصلةِ القاتل المتجوّل فيه،

يرى مائدة الخبز مفروشة بالأسماكِ أمامَ الصيادين فيتغافل

عن زوارقهم المهشمة.

يستحضرُ نوحاً ويأملُ بالمعجزة.

للبحرِ أنباءٌ منذ أن وَشَمَ الزرقة عَلى الخرائطِ،

حاضرٌ دوماً يومئ للقلاعِ ويَقي الخلجانَ،

يحصّنُ القراصنة

ويخدعُ الربانَ بالطيورْ

لكن السفنَ الملّحةَ تصلُ دوماً وتفرّغُ حمولة النحسِ

مكتبة الفكر الجديد

في أيّما لجّةٍ تفتحُ فمها لمن ينوء
بثقلِ العفةِ
ويتسامى

١١ / الطريق عبر الأطلسي

في الطريق من موريتانيا إلى جزر الكناري غرق في نهاية الاسبوع ٤٥ لاجئاً في مياه الأطلسي. كان قاربا صيدٍ على متنهما ٨٤ أفريقيا لم يصمدا أمام الأمواج فانقلبا في عرض البحر وطافت الجثثُ على سطح المياه. وفي حادث آخر غرق ٤٠ لاجئاً بعد أن انقلب بهم الزورق الذي يستقلونه للعبور إلى الساحل الأوربي. تمّ إحصاء عدد الضحايا منذ بداية العام ما بين ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠، أولئك الذين خانهم الحظ فلم يصلوا. وغالباً ما يُعثر على قوارب محطمة قبالة سواحل موريتانيا والصحراء الغربية، بينما يبحر كل يوم ما بين ٢٠٠ إلى ٦٠٠ شخص من مستوطنات تمتد من المغرب وشمال موريتانيا حتى غينيا بيساو في رحلة طولها ما بين ١٠٠٠ كيلو إلى ٢٠٠٠ كيلو متر. ومعظم الضحايا يبحرون شمالا من موريتانيا في مسارات أطول.

ثمن الموت لرحلة واحدة تكلف ١٢٠٠ دولار، فيما ينتظر ما يقارب ١٥٠٠٠ أفريقي في موريتانيا والصحراء الغربية دورهم للركوب على متن أية واسطة تنقلهم إلى سواحل أوربا.

لا وقت لإحصاءِ الضحايا، تليقُ بها الأوقات جميعاً؛

مكتبة الفكر الجديد

يوقفُ الميتُ الزمنَ مكرراً إيقاعهُ،
في حضنهِ تنامُ بهجةُ الوصول،
تغيبُ عنهُ الأحزانُ والأملُ فيهِ يمتثلْ،
ممتزجٌ بالبحرِ يطفو على الشواطئ ثمّ يعود.
نحن الشهودُ ننكفئ ونخونُ،
نغرقُ في الحيرةِ،
نحصي الزمنَ ونستيقظُ،
نشهرُ الهمومَ مجدداً
لنندبَ الرغبة التي انطفأتْ
للرحيل.

. . . . . .

١٢ / المرفأ الأخير

الفناراتُ ترشدُ السفنَ من غير أن تطفئ ضوءها للمهربين،
ودورة الضوء لا تميّزُ الأشباحَ عن الجثث.
على اليابسةِ، بينَ الرافعاتِ مكاتب رصدٍ
ومناضير ليلية، يدوّنُ المخبرون بها الأرقامَ والأوصاف.
في ميناء «أدريا» عثر البوليس على ثلاث جثثٍ،
في حاويةٍ مغلقةٍ محملةٍ على عبّارة أبحَرَتْ
من ميناء «دوراسو» بألبانيا فوصلت إيطاليا.
كانت الجثث لشبان يافعين اختنقوا داخل الحاوية

مكتبة الفكر الجديد

عبر الطريق الطويلة في البحر.
ربما لم يسمع أحد نداءَ استغاثتهم،
ربما غطت على أصواتهم قعقعة المكائن،
ولربما لم تصدر عنهم أية نأمة.
كانوا مخدّرينَ حالمينَ بالوصولِ
إلى مرفأ آمن
منصاته من ذهبٍ
وعنابرهُ مملوءة بالعقيق
. . . . . .

١٣ / حوادث عرضية

مَن لا يحبّ البحرَ؟
مَن لا يكتشفُ بينَ أشناتهِ كنوز العابرين؟
جميلٌ أن تغسلَ مثلهم أقدامكَ في الماءِ وتجمع المحّار،
تتحدث مع السمكِ،
تبني لكَ مملكةً تحيطها بزرقة السماءِ وبخضرة المياه،
ثمّ تشيّدُ لها مدنَ السواحل جنةً متخيّلة،
لا أن تُكبّلَ بالأصفادِ عبداً من أفريقيا وتُتركَ بغير قبرٍ
كفنكَ الأشنات.

سفنُ الغابرينَ تجربةٌ ما زالت تئنّ أخشابها،

مكتبة الفكر الجديد

ويُنسي الحلمُ وجْهَةَ العابرين،
يقايضون بالنقودِ وسعَ البحرِ بممرٍ
ضيّقٍ في الليلِ تحرسهُ أصواتٌ من أفواهٍ فاغرةٍ
لأشباحٍ يرتدون مسوحَ الرهبان.
قديسو العقيدةِ مرابونَ
والكهنةُ مهربون.
في غابات الآخرين ما زالت أعراس الصيادينَ تقامُ،
البنادقُ محشوّةٌ وما زالت سفن المهاجرين تمخرُ
الأقفاصُ جاهزةٌ ومناظير الرؤية تكشفُ
فيما الأصابع على الزناد.

مكتبة الفكر الجديد

معجزةُ المُتنزه

على مائدةِ الإفطار، **قبالة زوجتهِ**، ينتظرُ المتنزّه الشمسَ، ليَتيقنَ بأن الليل انتهى والمهمة أنجزت. **(لذا سأبدأ أنا بسرد أُعجوبة المتنزهِ لوحدهِ)**:

يضعُ المتنزهُ في الليلِ حُلمَهُ على الخوان ويقول: لكمْ كلّ هذهِ المخلوقات الليلية، والزجاج المرشوقِ بالدمِ تكسّرَ وجرحَ وجوه الضيوف المبهمين. خذوا أرضيّةَ الغرفةِ ببلاطِها المتثلم الملوّثِ، خذوا السقفَ والبئرَ التي نشربُ من مائها المالح. أوقفوا النازلين في الآبار ليطلقوا الطيورَ وليبعثروا المخاوف.

أنا الجالسُ إلى المنضدة أقول للمتنزهِ أمامي: لكَ الغابةَ المحروقة وأنت تدخلها. ماتتِ الثعالبُ فيها أمامي، واحترقت أجنحة الطيور. وقبلَ أن يجرأ الصيادُ على نفخِ نفيرهِ

تقافزت الأسودُ

وفي مخالبها دمٌ

ومزق أشلاء.

كنتُ متنزّهاً في بقاع الدهشةِ

مكتبة الفكر الجديد

وكان الذي يأخذني يتنزّه في الخطر؛
يداً بيدٍ، نتعارضُ ونتخاصَمُ ونتناقضُ
ننامُ ونستيقظُ توأمَينِ موَّثقينِ بالنوايا
كلانا ينتظرُ الصباح.
هو يسرد حصافة الوقائع والتاريخ
وأنا أرتبُ له الكمائنَ وأستقدمُ له الذرائع
ليبدأ بتخيّل معجزته وينتهي منها.

على مائدة الإفطار يتركُ المتنزه زوجَتهُ. يُرَمِّم في رأسهِ متاهةَ الليلِ، **يريدُ أن يغيّرَ ويتغيّر**. أنا أرممُ الكلماتَ ليغادر صوبَ معجزتهِ الصغيرة، يكابد الحقيقة ويناقش الوَهم، أتحدثُ عنهُ متحدثاً عن نزهتي فيما يتهيأ لرحلةٍ قريبة وأسفارٍ غامضة يعتبرها مغامرة.

فجراً، **في نزهتهِ**، على التلةِ الجرداء، مراقباً الحصى والترابَ، يَنتبهُ المتنزّهُ لوحدهِ إلى الشمس وهي تتململُ في الأفق؛ شمسٌ كبيرةٌ تتحرّكُ، تصعدُ وتنزلُ. فجأةً تحدثُ أمامهُ **الأعجوبة**: ترتفعُ الشمسُ إلى كبدِ السماء. ترتعشُ، تهتزّ، ثمّ تنطفئ هناك، تاركةً في السماءِ حفرةً سوداء.

مثل كائن يقاسي من جرح طلقةٍ ارتجفتِ الشمسُ، في روحها أولاً، ثمَّ، أطلقت شرراً وفحماً ورماداً أسودَ لتستقر هناكَ كتلة سوداء، فلم تعد تتبيّن مع حلول العتمة. تلكَ الشمسُ المضيئة **بَعَثتْ السوادَ** بأفولها فغابت فيه وانمحت.

قال المتنزه: إذاً حدثت الأعجوبة، ولكن ليس كما كنتُ أرغبُ وأحلمْ.

مكتبة الفكر الجديد

لم يطفئ الشمسَ إطفائيونَ ولم تطلقْ عليها طائرةٌ مبهمة سلاحاً مبهماً، والقدرُ لم يتحرك نحوها خطوة. هيَ ظاهرةٌ ربما لا تحدثُ إلاّ مرة واحدة دون مشيئة الله.

ورأيتُ مَن يعبث بنورهِ
يضيئهُ ويطفئهُ إيذاناً لغياب الروح
بانتظار المعجزة.

قال المتنزهُ: **إنها النهاية.**

سوفَ ينطفئ العالمُ فلا نعود نبصرُ شيئاً. سيفترسنا المجهولُ ونحن نستسلمُ له ضحاياً باردة. ماذا تجدي أعيننا بعدُ، وماذا ينفعنا المكانْ. كيف للناس أن تتشبثَ بالصداقاتِ، كيفَ لها أن تسجِّلَ التاريخَ وتتباهى به، كيف تعثرُ على الوثائق لترتّب العالم، بل كيف ستعثر على ما تقرأهُ لتعرفَ عن التحولاتِ في الزمن وتحسّ باختلاف الفصول.

حدثت الأعجوبة إذاً: كل شيء متشحٌ بالسوادِ مُغطى بالرمادِ مُتسخٌ بهِ. قميصه الأبيض ملوثٌ بالشظايا وبالشرر المنطفئة. سوف تغضبُ زوجته وتأمره: اخلع ما عليك واتركها للغسيل. أنتَ تلوّثُ ملابسكَ مثل طفل مشاكس.

لا تعرف زوجتهُ ما حدث ولا تدركُ ان الشمسَ انطفأتْ وكلّ شيء تغيّر نقيضه. لا يجدي العُريُ ولا يُنظّفُ الضميرُ الملوّثْ. كلّ واحدٍ غريبٌ عن غيرهِ، وفي العتمةِ وجوهٌ تضيع.

مكتبة الفكر الجديد

قال لها المتنزّهُ: ماذا يُجدي أن نتطهّر، ماذا يَنفَعُ الزمن، ومن أين نمسكهُ الآنَ. هذه ليست معجزتي. **قُتِلَ الزمنُ وانتهى المكانُ**. أنا لا أجدُ ما أتلمّسهُ أو ما أتكئ عليه، لا أبصرُ مكاني ونفسي ضائعةٌ بين النفوس.

أينَ نجدُ الساعات والأيامَ
أينَ نعثرُ على بهجةِ الرؤية
وماذا ستخلفُ لنا الأيامْ
كيفَ تبددت الكلمة وغابت عن العالم الأصوات.

كلّ شيء سيضيعُ. سَتحولُ العتمةُ في العين وفي الرأسِ وفي الأمكنة ما بيننا وبين ما سنفعل. جسور الأنهار مستترةٌ كما نتقصّاها وجسورنا أضحت مهدمة.

كانَ المتنزهُ الوحيدُ **يؤلّفُ ويحلمُ** بالمعجزةِ التالية لتأتيه فيحدثَ أمرٌ غير عادي يثيرُ الدهشةَ ويبعثُ الفرح. معجزةٌ صغيرة على الأقل ـ كأن تستيقظ الناسُ صباحاً وأمام كل دار نهيرٌ صافٍ تسبحُ فيهِ أسماكٌ صغيرة. ليس في المدن جيشٌ، وأن ينتفي وجود الليلِ، والنهار باقٍ. البيوت مبنيّة في خليج ساحلٍ دافئ فلا تعود الناس تضيعُ بكثرة الأشياء والأسماءِ والأحداث، تستغني عن الجدران والأبواب والأثاث والنقود. لا يرى المرءُ نفسَهُ في الآخرين ولا يشتري المرايا. يحلمُ، غالباً،

مكتبة الفكر الجديد

أحلاماً يجدُ فيها نفسَهُ قريباً من نفسهِ، يندهشُ ويقبلُ بما أُعطيَ له، غير محتجّ على ما يؤخذ منه.

المتنزهُ لوحدهِ،
حالماً هذا الصباح،
يحَلقُ ذقنهُ وينظفُ ذهنهُ في هذا الصباح.
يتعطرُ بالأعشاب،
حاملاً معجزتهُ الصغيرة يذهبُ مجتازاً تلّتهِ الجرداءَ ويهبطُ منها إلى موقعٍ آخرَ مضيء بالعتمة. يرفعُ يديهِ لينفضَ عن الشمسِ ما عَلقَ بها من سواد، فتبدأ رويداً رويداً تضيء نفسها وتتألق. هكذا تتغير الأشياء وهي حالات تكمنُ خلفها حالات. ينفض المتنزه ملابسه ثم يعود إلى البيتِ دونَ أن تقولَ لهُ زوجته: أيها الطفلُ المشاكسُ إرم ملابسك المتسخة بالسواد

لا يجدي أن تحلم بما لا ينفع
شمسكَ فيكَ أنتَ
تضيئها
وتطفئها
أنت
دون أن
تنتظر المعجزة

مكتبة الفكر الجديد

قبالتهُ أقفُ، وهو مسكونٌ بأن يَتَغيّرَ ويُغير، ينتظرُ معجزةً.
مددتُ يدي أباركهُ، جلبتُ لهُ عربات تتنزه في السماء،
وضعتها أمامهُ؛ وضعتُ حُصُناً تقدحُ الصواعقَ
تأخذهُ في رحلةٍ ميسّرةٍ أبعد مما يتخيّل.
كنتُ متنزّها وحدي، أمضي مخدّراً
بقاطرةٍ معطوبةٍ صوبَ معجزتهِ.
نزهتي قبالة المتنزه لوحدهِ
نزهةِ أعجوبةٍ نستجديها
معاً لنضمّدَ جراحنا
ونقترح الأسفار.
المعجزةُ فصلٌ
من الأوهام
لا تورث
النماء.
قال المتنزّهُ: إنها النهاية والبداية. وردّدتُ:
لقد حدثتْ الأُعجوبةُ؛ قُتِلَ الزمنُ، هكذا،
مرّتينِ فانتهى المكانُ فلم يعد مكاناً
كل شيء سيضيع دفعةً واحدة
ثمّ نغتربُ قسراً عن أنفسنا.
المتنزهُ لوحده يستسلم،
مغتبطاً باللامتناهي،
يرفعُ، يخفضُ يديه

مكتبة الفكر الجديد

يلوّحُ بهما فرحاً .
المتنزهُ أنتَ
والحالمُ
أيضاً

مكتبة
الفكر
الجديد

رَتقُ المُخيَّلة

الأسماءُ رداءٌ نَتوهّمُ بأننا نتخفى بها، أو نتذكرها كما نريد. لكنها قافلةٌ، في ذخيرة العمر، تهاجمُ فنهربُ منها.

تلاحقني، تقتفي أثري، تأتي إليّ حينَ لا أدعوها إلى اللقاء. شبهُ وجوه هيَ وأطيافُ أبدانٍ تزحفُ من المجهول، تتخاصم في بقعةِ الضوء وتتشابك، تتقاتل لتحضرَ إلى العشاء، مكتسيةً هيبتها. تَمسكني تجرّدني هذه الليلة من يدي وتنادي ها أنا رأيتَني مثخناً بالجراح، قرأتني، قبلْتَني، نكرتني، مَلأتَ جُزئي أو كلي بكَ. الليلة ميلادنا وفي نهايتها سنفترق بَعدَ أن نصَفّي الحساب؛ يكون لك أسمٌ ولنا أسماء. لا تهرب من المعرفةِ ولا تحفر في العمق، سنطردُ الأسماءَ لكَ ونبقى أمامكَ كوَتدينِ مغروسين في البريّةِ تحوكُ عليهما الخيبة.

نحنُ اسمان؛ قبرانِ مختلفان، تُوحّدنا الأرضُ في قارتينِ نائيتين. لا نشبعُ العذابَ ولا نرمي في جسدكَ الجروح.

الأسماء رداءٌ نتخفى بها،

الأسماءُ حقيقةٌ نتفقُ بأن ترافقنا.

اسمي هربرت ماركوزه، أرطنُ بالعربيةِ، عرفتكم هناك.

مكتبة الفكر الجديد

واسميَ الآخر حسين الموسوي. غافلٌ عن اللغةِ، بعيدٌ عن الذاتِ لا أملك صفحةَ ماءٍ أرى بها وجهي وأتفحص الوجوه. كلّ شيءٍ ظاهرٌ يكشفُ الباطنَ. لا تتخفى بغلالةِ حُزنٍ ولا تحَرّف الأحداثَ والأشياءَ، فالمسمّياتُ واضحةٌ

والوقائعُ دامِغةٌ،

وهناكَ قبرانِ يناديانِ

ويلحّان على التذكر.

١ / مرايا

للناسِ ولنا

مراياً متقابلة نراها،

توَلّدُ التماثلَ لحفرتينِ

تنامُ فيهما أرواحٌ مبهمة.

كيفَ نوَحّدُ بينهما والرؤيَةُ ضَيّقةٌ:

حُفرةٌ لحسين الموسوي ـ ضائعٌ في الصحاري،

وأخرى لماركوزة ـ رمادٌ في آنيَةٍ

يتَطَهّرُ المرءُ بهِ

لكن الفلاحينَ يهربونَ منهُ بثيابهم نحو البراري

ويبني العارفونَ بالغيبِ له مملكةً تتوسع

ليؤجّلَ الموتُ لهم قليلاً نصيحته

مكتبة الفكر الجديد

٢ / قبران

هناكَ قبرانِ في البَريّة يتململانِ وينادِيانِ علينا،
نسترجعُ صداهما في الذاكرةِ،
نعيدهما ـ نُسَجّيهما على المسرح المؤقت ـ
هذا ما تبقى في الذاكرة؛
قبرٌ مُشخّصٌ تحتَ قبّةٍ، أو قبرٌ لوجهٍ مُغيّبْ،
ثمّ ننسى إنها أخاديدٌ متماثلة،
وأحياناً رمادٌ
لنذيرٍ يحاسبنا، أو لغيرهِ من الأصواتِ
دَوّنت العِبرةَ، وأنكرَتْ أن يكونَ
الموتُ
واحِداً
بيدهِ الحبال، في صعقةٍ، يغلقُ بها
على الكون الستارة.

٣ / تساؤل

صَناجتانِ، في هذا العَزفِ البطيءِ على العمر،
تَقرعانِ، لقبرين متباعدين. تدّقُ الريحُ بينهما الأوتاد،
يأتي حائكٌ عاثر الحظ بنولهِ
ينسجُ ألواناً من المغفرةِ

مكتبة الفكر الجديد

ثمّ يترك لنا أن نُؤول.
لكننا نَلحّ دائماً في السؤال:

ما الزَمنُ
وما الأرضُ، في خَرابها العتيق؟

الزَمنُ دودةٌ أبديّةٌ تحفرُ في الفراغ،
والأرضُ إبحارٌ مؤقت؛
ترابها
شجرها
مِلحها
يُغري الضيوفَ بالبقاء،
لكنّ سريرها حفرةٌ مفتوحةٌ
يأتي إليها الدودُ
مُتغافِلاً عمن سيأخذهُ إلى الرماد
ومن سيبقيهِ في الماءِ
غيمة تمُرّ على الفصول

٤ / براءة

اسماءٌ بينَ أسماءٍ كثيرةٍ أضَعْتها في ذلك الوقت، مُتقصّدَةً تأتي إليّ الآنَ وتنادي بأسمى، فيِ الصحو وفي الخدَرِ العميق. تَمُرُّ أحياناً سحابةٌ لا

مكتبة الفكر الجديد

ألتَقِطُ حَجَرَها فتطرق في منتصف الليل بابي. تنبؤني بما جرى. والأنباءُ التي توخزنا ليست ألغازا، ولا الأسماءُ مجهولة لدينا. لكننا نهملها خوفاً من جدل العتاب ـ في هذهِ الحديقة الواسعةِ التي أضعنا بابها، بستانيٌّ يسقي الأرواحَ الهائمة فيها بالنفط، ونراقب نحن الحريقَ من خلف الجدار.

تشتعلُ النارُ ولا نُطفئها. تكتسي وجوهنا بالرمادِ وفي قلوبنا يسقط حجرٌ ثقيل. هكذا كما يحصلُ في المحاكمِ

نجلسُ شهوداً والضحايا المحترقة تَئِنْ

ثمّ نستبدل الأدوار؛

نحنُ الشهودُ

نرتدي أقنعةَ البراءةِ

حملانٌ، وسكينُ القصّابِ

مُلَوحةٌ، حادةٌ

مُلَطَّخةٌ

بالدماء

٥ / رماد الفيلسوف

الفيلسوف الألماني هربرت ماركوزة الذي توفي في العام ١٩٧٩ سيقام له ضريح شرف في مدينة برلين، هذا ما أقرّهُ نواب المدينة أمس.

مكتبة الفكر الجديد

وبرغبة عائلة الفيلسوف سينقل رماده من مقبرة في الولايات المتحدة الأمريكية إلى ضريحه الجديد ببرلين.

٦ / شهود

إلى المقبرةِ، عِبر السماء، تمضي هذهِ الأجساد.
الطائرةُ مُكَيَفةٌ، والرمادُ محفوظٌ بآنيةٍ،
وأكادُ أرى محتفلينَ ومُحَلَّفينَ يتخاصمون
في المقاعد الأمامية. أنا الضيفُ
المدعو كشاهدٍ لحضورِ قبرينِ بعيدينِ، مندهشاً
أطلُّ من النافذةِ، وأظنّ الأرضَ خارطة،
يمكنُ أن أرى فيها المكان.
لكنَّ الأماكنَ والأسماءَ محضُ دلالات،
صدفةً نواجهها فتنصب لنا الفخاخ.
صدفةً يفيءُ الجناحُ على القبرينِ:
قبرٌ في الصحراءِ
والآخرُ أشجارُ حورٍ تغطيه.
مَواقع حَفَرَتْها، مرةً أخرى، صُدفَة الأسماءِ
لكننا لن نحاكمَ الأماكنَ
ولا نمنحُ بها الأوصافَ للناس.

مكتبة الفكر الجديد

مُحَلّقَةٌ هذهِ الطائرةُ، مُكيّفةٌ، ولكنها مُمَوّهةٌ بالموتى،
تطيرُ صوبَ كلّ مدينةٍ
وتَمسّ بجناحها كلّ مطارْ.
تَركنُ بجانبي عظامُ مقبرةٍ ـ دولاب زمنٍ عاثر،
ريحه الأوهام، والخيال مِنَصّة محكمةٍ في القمرَةِ
مُحَلّفوها
وقضاتها
كَتَبَةُ المراثي
وليسَ للرحلةِ أن تعيد الحياة.

ليسَ للموتى شهودٌ
ومن أبصَرَ الجريمة، مثلنا، تغافَلَ عن الجدَلْ،
ليجعلَ الأيام المُقَنّعةِ تَمُرّ بقناعٍ داخل القناع.
نحيلُ المشهدَ إلى الماضي ـ
ضعف الذاكرةِ وشراكة النسيانِ
نسَمّيها الآنَ كَذِب النبوءة.
لكننا لم نغادر المكانَ لنكتشفَ
جزيرةً مستحيلة.
ها هيَ الأرضُ هنا، ليست من طائرةٍ،
بضعة أمتارٍ من دارنا

مكتبة الفكر الجديد

يُحْفَرُ فيها

قبرٌ للرمادِ

وقبرٌ للعظام

٧ / معرفة ماركوزه

في العام ٦٨ قَبْلَ أن نأتي إلى برلين، أو نرى فرانكفورت ونلتقي ماركوزه،

تَمَثّلنا رجلاً يجلسُ أمامَ مرآتِهِ، يُسَيّرُ بوقود المعرفةِ قاطرةً إلى المحطات. عادَ إلى البلادِ مع حزنِهِ، نافياً الكثرَة. يضعُ الزهرةَ في مكانها، يغلقُ أبواب المعامل.

قُلنا المسافات حسابٌ، بل المُخيّلة شراكة في الرموز، لنُمَوّه الهجرةَ ولنمُرّ بالأماكنِ ونبارك الأسماء.

كلّ هذه البدائل، في صحوةِ الليل على المائدة، ونحن مُخدّرونَ بالوهمِ والوهمُ قوّةٌ غامرة

في العام ٦٨ لمْ نكنْ، آنذاكَ، ريشة في مهب الرياح، بل كنّا نقتربُ من أنفسنا لنتعَرّفَ عليكم. لنتعلّم منكم الأسماءَ فنُطرَد من الجنة.

نسكنُ داراً واحدةً

نجلسُ في باحاتها نترصدُ رائحةَ المغيب، ونراهن في المقاهي على

مكتبة الفكر الجديد

زهورٍ تنبتُ في الصخر. ومن شرفاتنا نقيس ارتفاع الموج ونحسّ بقدوم العاصفة. يُنذرنا الآتونَ إلينا مع الزبدِ، منَ الغزاة ومن أفول الأماكن ليحتجب، فجأةً، ذلك الضوءُ الآتي إلينا من نجومٍ بعيدة ولننتظر قاطرة مُقبلةً أو غوّاصةً تطفو في مياهنا. نصافحُ البحّارةَ فيها، مُعْجَبين بالمخيّلة:

كيفَ تقرّبُ المكانَ

وتوسّعُ الحَدَقات فتوَلّدُ الصورْ.

في العام ٦٨ يختفي البحرُ فينا حينَ نتعَرّفُ على فاطمةَ ومحمد وحسين. نراهم قابعينَ في مُدُنٍ مُسَوّرةٍ، كلّ في مربعهِ الرمادي نائمٌ، مُطوّقٌ بأطيافِ جثث.

جُثثٌ نحنُ

نتهامسُ معَ الجثث.

في العام ٦٨ ونحنُ في دورتنا المَيْتة، نُرَتّبُ الأشياءَ فينا ونُنظفُ الشرايينَ بمضخات الدم، يجيءُ ضبّاطٌ ذوو نجومٍ معدنية. يطفئ الضبّاط كواكبنا، ويدخلوا بيوتنا باحثين، مثل اللصوصِ، عن الغنيمة.

٨ / فاطمة

كانت مَن نحبّها، فاطمة، حُبلى

مكتبة الفكر الجديد

فوقَ دِثارها الأسود أوراق شجيراتٍ من ذهب
وفي قلبها بشرى للزمان الآتي:
مَطرٌ لقوس قزحٍ
أمْ لطاعونٍ
يَزحَفُ
إلينا
؟

وَتَمُرّ الأيامُ فاسدةً،
في حَملها نُذُرُ الرَيْبَةِ تَتَجمّعُ
ومن سيأتي وسط الخطيئةِ العامرة
مَرشوقٌ بدَمِ الضحيّةِ
فتَشمّ الذئابُ الرائحة.
الزمنُ الدائر دولابٌ ريحهُ عَفنٌ، والولادةُ فيهِ خيبة
لكنها تتَوَسّد الليلَ، وتوصدُ النوافذَ عن الصوتِ
ذلكَ الصدى يخنقُ الوليد

٩ / أم حسين الموسوي

عثرتْ امرأة من «السماوة» على رفات ابنها في مقبرة جماعية في

مكتبة الفكر الجديد

«المحاويل» بعد أن فتشت عنه في معظم المقابر الجماعية التي تم اكتشافها بعد سقوط نظام البعث في العراق. وقد استدلت أخيرا على مكانه بواسطة قوائم نشرت أسماء الضحايا وأماكن دفنهم. وكان أُلقي القبض على ابنها في عام ١٩٩٢ بداره. اقتيد معصوب العينين إلى مكان مجهول.

١٠/ سورة العائلة

بَعدَ عقدينِ، فاطمة كومةٌ مفتتةٌ في رياحِ الزمان
تبحثُ وتبحثُ في كلّ مكان
هذه هي المقبرة العشرون، وتبحثُ.
تُقَلّبُ وتنبشُ فيها عن ابنها. جائعة هيَ، غائبة، مُتَرَبةٌ،
تحت أظافرها كِسْر عظامٍ وشعرٌ جَعِدٌ لناسٍ هم أحِبّة الناس.

كانت الأمُ قد ذهبتْ إلى مقابر الدغارة والزعفرانية،
إلى سلمان باك. صعدت جبالَ حمرين ووصلت طوز خورماتو.
في الـ «محاويل» عَثَرَت على رفات ابنها حسين.
ربع قرنٍ من الانتظار، ومن سُمّ الانتظار؛
صَلّتْ وانحنت للأولياءِ وللمخبرين:
تريدُ حسين بجاهِ الحسين.

مكتبة الفكر الجديد

في قبرٍ بالمحاويلِ، بعدَ آلاف القبور، حَفرَت ثمّ استدلت عليهِ من خاتمِ شذري في إصبعهِ الوسطى، قبّلتهُ وقبلت العظام المُتربة: «هذا أنتَ يا بُني، سآخذكَ معي. سأحملكَ.

عظامكَ ليست ثقيلة»

وضعت فاطمة ما تبقى من حسين في كيسٍ أسوَدْ. استقلت باصاً مزدحماً بالناسِ إلى النجف، لتدفنهُ هناك.

وضعت كيسَ العظام على مقعدٍ بجانبها وغفت في الطريقْ لترى في حلمها القصير صبياً، يجلسُ على مقعدٍ بجانبها.

يسافران معاً إلى بستان نخيلٍ محروقةٍ والرماد فيه أبيض.

يَهُزّها ويوقظها حسينُ ويقولُ هو عطشانٌ في هذهِ الصحراء،

وفي هذهِ الظهيرة، وفي هذا الحريق، وفي كلّ هذا الرماد:

ـ «سأسقيكَ يا بنيّ بِدُموعي».

ورأتْ أحصِنَةً كثيرة، وخياماً، وعزاءً في الخيام

رأتْ سيوفاً تتقاطعُ، ودماء تقطر في نهرٍ مُلوّث

ثمّ أجفلتْ ومَدّت يَدَها إلى الكيسِ الأسود:

«ها أنتَ هنا يا وليدي، سأخفيكَ

في قلبي. سأحميكَ بكبدي،

وأضعكَ في عمقِ عيوني»

مكتبة الفكر الجديد

النجفُ قريبة والقبابُ
ذهبيَّة وزرقاء،
هيَ الدليل
الحق

مكتبة
الفكر
الجديد

كتابةٌ عن موت

١ / ليلُ الأعمى

أعمى هوَ مَنْ يمرُّ بالاجسادِ المثقوبةِ ولا يتلطخُ بالدمِ،
يحيل العثرة إلى صُدفة الحجارةِ ويمرُّ.
مُغلق العين مَنْ يغسلُ يديهِ ويتوضأ،
يأكلُ
ثمّ ينام.

لا يبصرُ الأعمى إلاّ ليلهُ المَزدحم برواقٍ أسود،
وبعكازتهِ يمسُّ الجسدَ المرمي في الطريق،
يمشي على بُركةِ الدم،
يَنقرُ الصدرَ ويتوخى الساقَ
فتغيب عنهُ التفاصيل.
عيناهُ حفرتان والأشياء لديه حواجز.

شاعرُ العتمةِ، ينشدُ نشيدهُ الجذل
في الوادي الذي يمتلكه،

مكتبة الفكر الجديد

جوّالٌ أعمى،
من غير كلماتٍ
يصِفُ ما لا يراه،
يُسَطّرُ القافيةَ عن الموتِ، ويكتبُ شعراً،
ساهياً أو متغافلاً عن مآتم من حولهِ،
يحصي الأجسادَ كأحجار تحيط بهِ:
هكذا هيَ أرقامهُ عن الأشياء،
لا يمتلكها ولا تمتلكهُ،
يستخدمها ذريعةً
لمجرّدِ المعرفة.

موتٌ واحدٌ يُهَدّمُ مملكة الله
ثمّ يغلقُ رتاج المخيّلةِ.
موتٌ واحدٌ يكفي
لترتجّ
أبواب السماء.
وشاهد الزورِ
شاعرٌ أعمى
سماؤهُ مكبلةٌ بالسواد.

مكتبة الفكر الجديد

٢ / تقرير رويترز

بلدروز/ العراق: جلسَ الطفلُ حسين (٦ أعوام) ملفعاً بالضمادات، علتْ عينه كدمة. يتذكرُ حسين ويتحدث بصوتٍ مرتعش كيف قتلَ رجال مسلحون ١٣ شخصاً من أفراد عائلته، فيما كانوا عائدين في حافلة صغيرة إلى منزلهم بعد زيارةِ أقربائهم. كان من بين القتلى رضيع في يومه الثاني عشر. فتحَ مسلحون النار، مساء السبت في احتفالات عيد الفطر، على حافلةٍ صغيرة تقل ١٥ شخصاً، هم أفراد أسرة واحدة.

كان الطفل حسين قد استلقى على فراشٍ في غرفةٍ صغيرة بمستشفى، أحاطت بجذعه النحيل ضمادة بيضاء ملطخة بالدم وباليود تغطي جروح الرصاص الذي تلقاهُ في معدتهِ وخاصرته، وغطت ضمادة أخرى ذراعه الواهنة، فيما برزت كدمة حمراء بنفسجية على إحدى عينيه.

تحدث حسين بأنفاس متقطعة عن القتلةِ بينما كان الطبيب يفحص جروحه في مستشفى «بلد روز» على بعد ٨٠ كيلومترا شمال شرقي بغداد،

قال: «كانت وجوههم مغطاة.

كانوا واقفين على جانبي الطريق ثم جاءوا من خلفنا.

اثنان منهم في المقدمة

مكتبة الفكر الجديد

واثنان من الخلف».

وفي سرير قريبٍ رقدَ الناجي الوحيد الآخر، سعد شامل (١٨ عاماً) وهو ابن عم حسين والذي أُطلقتْ عليه النارُ في بطنهِ أيضاً. قال سعد بصوتٍ واهنٍ وغير واضح تقريباً:

«كنا بالقرب من الجسر...

كنا في حافلةٍ صغيرة..

كنا أفراد عائلة واحدة

انهمر علينا الرصاص

خارج مشرحة المستشفى احتشدَ عشرات من الأقارب يبكونَ وينوحونَ حول الجثث وهيَ ما تزال بملابس غارقة بالدماء.

إحدى الجثث وُضِعتْ على الأرض ولفتْ بغطاء.

أربعُ جثثٍ لأطفالٍ، بينها جثة رضيعٍ صغير، حُشِرتْ في رفٍ معدني مصمم ليستوعب جثة شخص بالغ.

قال أحمد عبد الستار، النقيب في الشرطة؛ إنهم عثروا على الحافلة الصغيرة وقد بَدت عليها آثار أعيرةناريةٍ غزيرة.

أحالتها إلى شيء شبيه بالمنخل. ومن المقرر دفن والدَي حسين وغيرهم من الضحايا في يوم الأحد [اليوم]، فيما يعتني الأطباءُ بالناجيَين اللذَين لا

مكتبة الفكر الجديد

يزالان في حالة خطرة. وقبل أسبوع فقط اجتذب مُفجّرٌ انتحاري حشداً من الناس إلى شاحنةٍ يقودها محملةٍ بالتمر قبل أن يفجّر عبوة ناسفة بكميّةٍ كبيرةٍ من المتفجرات أدت إلى مقتل ٣٠ شخصاً في بلدةٍ صغيرة.

---

٣ / كلمات... ك ل م ا ت.

مَن يكتبُ عن الموتِ، داخلاً إلى هيكلهِ المبهمِ، بمجردِ كلمات؟
مَن يتحدّثُ بأصواتِ حروفٍ لا تقاربُ الموتَ ولا تسمّيه؟
على مقربةٍ منكَ، بل أمامكَ،
طِفلٌ ممزّقٌ
لا تحدّقُ في عينيهِ
ولا تلمس شفتيهِ
وابعدْ أناملكَ عن موضعِ النبض فيه
لئلاّ تشي بكَ رحلة الموت المبهمة
فتأخذكَ إلى ملكوتٍ من صحراءٍ وعواصف.

الموتُ سِفرٌ مقلوبٌ، بل غوّاصةٌ حديثةٌ
بملاحٍ من غير مجداف،
في بحر الظلماتِ تمخُرُ. تصطادُ عياناً
وتأكل أكباداً،
تريدُ قلبكَ وحنجرتكَ لتعضّ عليهما،

مكتبة الفكر الجديد

تسحنهما رماداً،
تنوّمُ بهِ الخلقَ
وتطلبُ دماً ترشقُ به السماء.

٤ / إضافة

كان دوماً، من المجهول، نداءٌ سيأتي.
صوتٌ متوغّدٌ، واضحُ المعاني،
يُشرّعُ للقتل،
ويباركُ الاقترانَ
بينَ الحضور والغياب.
ينشرُ الموتُ سحابةً تشدّها الأيادي وتضفرُ مطرها
لتعزفَ بثقلِها موسيقى الجنازة.
نغمٌ يغنّي الفأسَ الذي سقط، أو ثقوبَ
الصدرِ من خردةِ الحديد.
راحلٌ طيف الجسد المؤجّل، إلى المستحيل،
وما يتركهُ غير مسمّى ؛
زنخٌ، وكالعُصفرِ ينشرُ غطاءهُ
وليمة للدودِ ومجرشة للعظام.

مكتبة الفكر الجديد

٥ / آلهة

نتوعدُ في موسم الدمِ أن نضاعفَ الغربةَ فينا،
وموسمهُ سهلٌ، آتٍ إلينا في معظمِ الفصول،
يولدُ منذ سطوةِ الماضي
حينما نُحاور آلهةً كاذبة
نُدخلها في جلودنا
فنُحضِرها كما نشاء

الدمُ مسفوحٌ في كلِّ مكان:
فوقَ البساط الأحمرِ يتفجَّرُ ينبوعُهُ،
على زجاج النوافذِ مرشوقٌ،
وعلى أكرة الباب التي ندخلها،

ننامُ الظهيرة بين الجدران وفي الليلِ على السطوحِ
تنادينا الأفياءُ والنجومُ
نحو الخَدَر فنلغي اليقظة،
نمتدّ دون مخاوف فننسى الآخرين.
نرى النهرَ على ضفتيهِ مواكب المشيعين
ونحسُّ بالمدينةِ ثكلى.
أمامنا الأشجار القليلة، والنخلُ المقصوف
يعيدُ نسغهُ الصاعد بمياه الدمِ. يورقُ ويثمرُ فاكهةً

مكتبة الفكر الجديد

يقطعها الشيطانُ بالسكينِ
ويغتسلُ في ينبوعها الساخنِ.
يدٌ لا يملكها النائمُ
جاءت من
الغفلةِ
لتقتل
الموتُ موتٌ
لا يكتبه الميتُ، ولا الشاهدُ يستلقي محتضناً الجثة.
واحدةٌ، اثنتان، سبع جثثٍ، ألفٌ ولا تحصيها الذاكرة
تنسدلُ عليها ستارةٌ تحجبُ العارَ
ونخافُ أن نتذكر:
قَتَلةٌ هنا وبيننا
وقابيلُ هناك
نؤاخيهِ
ونرفعُ صخرتهُ.
لكننا، كما نريدُ، نلوّنُ ونؤولُ: مجردُ أسطورة
في التاريخِ
ولا ميّتٌ بلمس اليدِ
يثقلُ الذاكرةَ.

الكلماتُ
والكلماتُ

مكتبة الفكر الجديد

كلماتٌ
و«بلد روز» مكانٌ مهجورٌ ليسَ فيهِ شهود،
والموتى قطيعٌ تاهَ عن مراعيهِ
وحدثت الحادثة
نرَمِّمها
ثمّ نسردها
لننساها:
موتٌ كثِيبَ صدفةً، ليستعرض موتاً عرضياً
يحدَثُ في كلّ يوم.

مكتبة الفكر الجديد

وَعدُ الجَنّة!

قَلبي طريٌّ هذا الصباحْ
لمْ يتجوّل بَعدُ بينَ البنادقِ والألغامْ
ونافِذَةُ رزقي على هذهِ العَرَبة:
أسمالٌ
وخردةٌ
وكيسٌ فارغٌ من النقودْ

أمشي
وقد عَلّمني الخوفُ
أن أمسكَ بروحي مُرتعبةً
بين القذيفةِ والقذيفة
تلوذُ بالنبيّينَ وتقرأ الأدعية.
روحي تنوحُ لأطفالٍ
جياعٍ ينسجونَ الأملَ
ينتظرون العشاءَ:
خبزٌ يابسٌ
وتمرٌ

مكتبة الفكر الجديد

هذا الصباح
يخطيءُ القدرُ
فتقومُ القيامةُ ؛
يُسفحُ الدَمُ هنا، وهناكَ الدَمُ يتلطخ؛
أشلاءٌ في الدمِ وفي الطين
مِزَقُ الجَسَدِ في كلّ مكانْ.

ها هيَ القيامةُ جاءتْ.
جاءوا بها،
فلن نعودَ إلى البيتِ،
لا نُحمَلُ على الأيادي
لن نُغسَلَ ونكفّنَ بالبياضِ
لن نرى المقبرة

أيها النبيُ المزيَّفُ الكاذبُ الماسكُ بفأسهِ تحتَ الرقبة
تحزُّ بها الفجرَ وتطفيءُ الشمسَ وتُيَتّمُ العائلة،
فسادٌ في الدعوةِ يعجنكَ
تغرفُ من الجحيمِ شرراً
وتبشّرنا
أن نَدخلَ «الجنة»

مكتبة الفكر الجديد

لجوء أحمد ج.

١ / على الطريق

خاضَ (أحمد ج) النهرَ بين بلدين مبهمين، وكلما قطع المفازة قيلَ له أنها النهاية، وكانت دوماً هي البداية. اختبأ ثمّ مشى، واختبأ. لاذ إلى شوكِ القفار كالقطا يجرحُ جناحه. لكنهُ بعد هناءة قصيرة يأتي إلى البحر فيلعقُ ملحَ دمهِ ويفكر:

هنا المياهُ والفلاةُ والبحرُ والنهرُ بلادٌ، وكل بلادٍ ضيّقةٌ محفوفةٌ بالخطر، تلهب الروحَ وتجبرها أن تحترق.

ما جدوى ما تَرَكهُ خلفهُ؟

ما الماضي، ما التاريخ،

وما عرباته المثقلةِ بالأحداث؟

ركامٌ أتتْ من المجهول، سَدّت الطرقَ أمامهُ وأفسدتْ دمه. حياته المكررة تطقّ الآنَ كأحجار مسبحةٍ ملظومةٍ بالجراح.

كان ذلك في شباط ١٩٩٠ حين وصلَ الفتى النحيل (أحمد) الحدود. ندبة السكين في خاصرته تستحضر هيئة المدينة المبهمة فيرى النهر الذي خاضهُ وكسرَ جليده، ثمّ تلطخ دمهُ بالأعشاب. جاءه المهربونَ واللصوص:

مكتبة الفكر الجديد

غنيمة هو يتداولون ثِمارها ويقيّمون ثمنها ثمّ يقتسمون الحصصَ وهو مخذّرٌ في التيهِ لا يعبأ بالوليمة. يغمضُ عينيهِ فيرى مساحات منبسطة وجبالاً مغطاة بالثلج وبالأنين، أكواخاً بين الغابات وفوانيس شحيحة بيد أشباح تلوذ بالعتمة، وربما يشمّ رائحة جثثٍ متروكة في العراء.

شباط إذاً، شباط النيران المطفأة في المجمرةِ، هو أقسى الشهور، ويسدّ عليك السنواتْ. لا رجاء يُرتجى. يَئِسَ الله فهمسَ بصوتٍ خفيض: كن عتمةً وصقيعاً، هذا الزمنُ ليس زمن الصالحينَ. زمنٌ تصنعهُ النقودُ، ينحتهُ القساةُ ويضعونَ الممالكَ فوقه. أية مملكةٍ تريد؟ متشابهة تلكَ الممالك ما إذا امتلكتَ قلباً من خشبٍ وأحشاء نضبَ فيها الدمُ وثُقّلتْ بالحجر.

قدرٌ يلفُّ مَن يهرب حينما يحلّ عليه من غير ميعاد: مهربون يسلمونكَ بأجرٍ إلى مهربين، نقودٌ تشعلُ وقودَ الهربِ إلى لا مكان، والأقدامُ المقرّحة تدوس المصير. مُضيٌّ للمسافاتِ. اختباءٌ. مُضيٌّ في المسافاتِ إلى المجهولْ. الأرضُ واسعة لكن المدنَ شحيحةٌ ومسوّرةٌ بالحرّاس، والكلابُ مدربة على رائحة الغريب.

الناسُ تسلمكَ إلى الحفرةِ والحفارُ يدفنكَ في الصقيع.
أنتَ طاعونٌ. في جلدكَ كلبٌ أجرب مكلوبْ.
وقالت لكَ الأنمةُ: يُساق بكَ من بلدٍ إلى بلد.

مكتبة الفكر الجديد

هكذا توصَفُ سفرةُ (أحمد) ـ رحلة مصابٍ بالجذام، وبسمكةٍ في حقل صقيع، وشباطُ يكمن في موضع ما من العمر ـ في برعم الطفولة يستقرْ. يستملكُ البراءةَ منها ويثمر جليداً وغربة. شباط طمسَ البهجة العابرة منه حينَ وصلَ حيث ما ظنه عشاً في المدينة. ما مُنِحَ (أحمد) من قبل ومن بعد ألفة المكان. رحلته مثل القيامةِ أخذتْ منه غبطة المغادرة فتكسّرت زجاجة قلبهِ ثمّ تقشّرَ ماضيهِ عن كمدٍ يحتلّ العظام. لم يُبقِ له الشهرُ اللئيم وردةً، ويبسَتْ الجذور. دارَ الزمنُ، اختلطت المواعيدُ، انقلبت الأمكنة. شباطه يجَرجِرُ نفسهُ والشهورُ لم توقظ فيه الرغبة. يسمعُ عِبْرَ النافذة ـ خارج النافذة قططاً تموءُ وفي حضنه جثة من ثلج.

زمنٌ باردٌ بارد
زمنٌ تالفٌ تفككتْ وصدأتْ مكائنه
والغرفة الضيّقة محاطةٌ بالصقيع.

٢ / في الملجا

في الفجر يستيقظ اللاجئ (أحمد) وفي حضنهِ البارد يجلس الماضي حاضراً مستمراً. في هذا اليوم أيضاً مهمتهُ تنظيف المدينة التي حلّ بها. يحملُ معزقهُ والمسحاة. يدفع أمامه مكنسة يكنس بها الطرقَ.

مكتبة الفكر الجديد

هذهِ هي المسحاة الصباحية بيدهِ تجرف البهجة، والمعزقُ يقلعُ الأعشابَ. هناك المشحوفُ يتراءى له حلماً، وستارة الخيش تمتدّ في شارع «البوليفار». لو تحرّك المحراثُ على الإسفلت، لو عاصمةً في عاصمةٍ ثمّ تتوالد البلدان، وتسافرُ الغيمةُ فوق تلك المدن، لا يبقى رنين في الرأس، والأسئلة لا تبقى مقلوبة.

في ندى الصباح المشبّع برذاذ النفطِ حافلاتٌ وعرباتٌ مسرعة تمضي. جنودٌ في الثكنات وموظفو البنوك مبكرون. آلات التصوير المخفيّة تثبّتُ الوجوهَ الحزينة. مرصودٌ الغريبُ بضحكتهِ، وأسنانه التالفة تشخّصهُ عن كثب.

ماذا تجدي المخيلةُ إذا كانت مياهها ضحلة؟
بماذا تقارن العزلة المولودة من العزلة؟
ما المكان إذا ضاقَ المكان؟

لا فأس بيده يقطعُ بها شريط الزمن؛ الفأس ذاتها مغروزة في تربة البادية، في صحراء القرية الرمادية، معلقة الآن على الخباء، والكوخ القصبي ينوحُ، فيما المياهُ تجف والأرضُ تحترق. يعوي كلبُ القبيلة الأسود، والذئابُ البعيدة أليفة برفقة العداوةِ تنهشُ الفريسة، بينما النجوم تتشظى وتحثّ على المسيرة البعيدة.

مكتبة الفكر الجديد

في نيسان، بعد عقودٍ، رمت أشجار الفليدر والزيزفون وشجيرات الكرز الصيني طلعها ويباس زهرها على الإسفلت في العاصمة الجديدة فغطت الأرصفة، تتقاذفها ريحٌ خفيفة: في هذه المدينة تزهرُ الأشجار. في هذه المدينة عجائبٌ: تقبع الناسُ خلف الجدار، كل واحدٍ يبني أسوارهُ.

يكنسُ أحمد ليلَ الزهور ويكنس معها أيامه.

لم يعد لصقر البوادي مساحة للطيران.

لا تأتي اللقالقُ والبطاتُ، والوزّ لا يضربُ بجناحهِ زهورَ الأهوار.

والليل، ذلك الليل، انطفأت فيه الفوانيس

بينما الفجرُ يفتح عينيه، لا على الماء

بل على القوارب المُخَرّبة.

ما الماضي، ما الحاضر؟

ما المدن ما القرى؟

وما سرّ كل ما يزدحم في الرأس من رنين؟

اللوعة هنا، وبدأتْ هناك أولاً. كبرتْ كفراخ النسر ثمّ وسّعت أجنحتها لتنقضّ على الفريسة. قارئ الحظ، مع زحف المكنسة، يتعثر في رمي الحصى فيكشف عن طرق إسفلتٍ تلتفُّ وتلتفُّ حولَ الرقبة، بينما المصيرُ مثل دِهان معتم.

كأنّ الليلَ، كل الليل قد غطى النهارْ

مكتبة الفكر الجديد

لا ريح آتية تدفعُ غطيطة العتمة.
زهورُ نيسانَ على الإسفلت تُكنسُ
يكوّمها (أحمد) في مملكةٍ ليست مملكته
بينما يدفعُ نيسانَ إلى الشتاءِ
ليدفن الزهرَ في الجليدِ.
ويقبر أيامهُ الباقياتْ

مكتبة الفكر الجديد

تأويل المكان

«هل أنتَ متأكدٌ يا سيدي مِن انها كومالا؟
/ متأكدٌ يا سيّدي/
ولِمَ تبدو كئيبة؟ / إنهُ الزمن يا سيدي»
خوان رولفو

ـ ماذا قُلتَ عن اسمِ هذا المكان؟

ـ إنهُ ميتا أور يا سيّدي
أُجبِرَتْ أن تكونَ أشجاراً للصباح، وقلاعها
ظواهرٌ لإرثِ القبائل

ميتا أور، يا سيدي، إحالةٌ للنسيان
طُوّقتْ قناديلُ زهورها بالجثثْ
وأناسها غادروا تجربة الذاكرة

ـ وماذا عن اسم هذا الرجلْ؟

مكتبة الفكر الجديد

ـ متروكٌ يا سيدي:

حالاتٌ

وأشباحٌ

وأزمانْ

تحرقهُ الشياطينُ مرّةً ويُصَوّبُ مرّةً نسيانهُ نحوَ النسيانْ

ـ رجلٌ يَصنعُ تجربةً

فيوعدُ البحارَ بالطوفان

ـ رجلٌ متعبةٌ مقابرهُ

وحروبه خاسرة

ـ إنهُ الوعودُ، يا سيّدي؛ هذيانُ الرعود

راحلٌ فيها هذا الشيخُ

رائحةُ غبارٍ في هدوئهِ المعتاد

ـ متأكدٌ أنا يا سيّدي، نجومٌ معبأةٌ في حقائبهِ

هيئتهُ غاضبةٌ

مسحورٌ بالقيودِ

يضجُ في وهمِ المكان

ـ ولِمَ يبحرُ في غرفتهِ المسوّرة؟

مكتبة الفكر الجديد

ـ هوَ الزمنُ يا سيّدي،
ميتا أور في الواقعِ إقصاءٌ لتجربةِ السفرْ:
تجفُّ المياهُ
وترسو سفينةُ المعرفة

إنها القيامةُ، يا سيّدي، وعود هذهِ العلامات:
ينطفئ البرقُ
فنبحرُ في مسافاتِ العلاقةِ
على ضوءِ
الكلمات

مكتبة الفكر الجديد

وهم المكان

البيت الذي تسكنهُ الآنَ
كهفٌ تفوحُ منهُ رائحة الثوم
ويكتسي فيه هيكلكَ بالكلسِ وبالوسخ.
الريحُ آتيةٌ إليهِ، وبها نَشرٌ لزجٌ لصيقٌ بردائها البالي،
والماءُ عطنٌ تغرفهُ، يكثرُ فيه ما تحملهُ الرأس من فقاعات.

هذا ما قلتَهُ لي أنتَ،
وداري لا تركنُ إليها القطا
أو تناديني فيها الأصواتُ
فتموتُ الروح

هكذا طُردنا
من الأماكن:
من البيتِ الذي كان صفحةً من الوهجِ
وظلالاً بخفقةِ الأمهات.
أُبعدنا معَ النهرِ في مجراهُ العميق
ليعودَ مرةً أخرى

مكتبة الفكر الجديد

إلى الصخرة
مصلوباً لدى النبعِ بالوقوف.
نرى الريحَ تُخنَقُ في البئرِ
فلا تمسّ الشجرَ وقتَ الظهيرة،
وحين نذير الأشياءَ ـ أدارتها يدُ الشيطانِ.
تأتي بالرمالِ تَملأ أكُفّنا.

(نحنُ الملائكة الممنوعونَ من الحكمة)
يُحجَبُ النور عنا،
تسقطُ وجوهنا
مثلومةً بالزمنِ الحاضر المنسي
عتيقةً بوشمِ الأماكنِ،
وقد أُقصينا عنها
مَرّةً
وإلى
الأبد

مكتبة الفكر الجديد

لِقاءُ المُدن

وأنتَ تَتَجوّلُ في جُثمانِكَ المُتَكاثِرِ
حاملاً أشباحَكَ المُثقَّلِ بها
ماذا تَفعَلُ في هذهِ المَدينةِ، بَعدَ تلكَ المَدينة،
بَعدَ المُدنِ التي تقيسَها بِمَكانِكَ الجَبَلي
فلا تَجِد صنوها مَنحوتةً هنا.
مَرّةً تَرصِفُ نُجومَها، فُتُقَلِّبُ أشجارها،
تُقاتِلُ مَلائِكتها
ثُمّ تُحضرها وَجبات للذئابْ
طالعةً من روحِكَ
مُرتَدِيةً
ثيابَ المَغفِرَة.

ماذا تَفعَلُ في هذهِ الشوارع المُلتَفّةِ بالشوارعِ
فَتُوَلِّدُ لها قامة مُختَزَلة ورماداً للجُثَثْ.

تَدخُلُ
باطِنَ الأرضِ

مكتبة الفكر الجديد

لِتَمشي في هديرِها مُخَدِّراً، تَرى وَتَرى،
بروقاً تَبتَكِرُ أشكالها وكُثرَة أصواتها وحَراشِفها الليلية.
تسمعُ الريحَ، لا شَيءَ سوى هبوبها
وعَواصفها في ثقوبِ السّماءِ،
وأحياناً في أصابعكَ المرتويَةِ بالعُيون.

ماذا سَتَفعلُ بالريح
وَبِهذهِ الأسماءِ، بكُثرَةِ الأقنعةِ في ثقوبِ ذاكِرَتِكَ
وأنتَ تُرَقِّعها، وتُعيد ترتيبها
وليمة لفريسة الذئاب
تدفَعها بِعَرَبةِ رأسك المائل على شَمسٍ مُطفأة
تراكمها ذخيرةً لِمَخاوفِكَ التَتَكَثُّر

ماذا تُجديكَ هذهِ الذاكرَةُ المُزدَهرة بالذاكرةِ
سِوى أن تتناءى عن آبارِها
فتَبتَعِد عن تأسيسها المُكَرَّر.

أيّها الرجُلُ السرّي
المضروب بالأرقامِ والأقمارِ والصفيح
الشَبيه بِبِئرِ الصحراءِ
تَوَهَّمْتَ أبراجاً واستَحضرتَ عاشِقات
واصطنعت مُلوكاً لممالِكِ السماء

مكتبة الفكر الجديد

ثُمَّ
تَدَثَّرتَ بالعلاقة،
تستيقظُ بها فترى مُدُناً ومَقاهٍ متروكة
هيَ قُرى للروحِ
مثلومة بالناس.

ماذا سَتقولُ عن الرحيلِ وأنتَ مُغَلَّفٌ بالأسئلة،
لَرُبَما تترك
صَخَبَ الصُدَفِ وبنوكَ العواصِفِ
تَقضي في غَوّاصة الليلِ
مُتكاثِراً في جثمانكَ، تُمَسِّدُ عَقارِبَهُ المُوَلِّدة.
رُبَّما ترى
خشبَ الأيادي وكلّ الجَسَدِ
مُرَكَّزاً بالشَجَرِ وبالقواربِ،
بشبيهِ الأشياءِ والأقنعَةِ
مُستعِداً
مَعَ أشباحِكَ وأقنِعَتِكَ وجُثمانِكَ المُسَجّى
لِعواءٍ
طويل

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

ممالك

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

١ ـ مملكة الدهشة

كلّ ما تتذكرهُ للتو يختلطُ عليكَ، لأنكَ قضيتَ في العمر طويلاً، وفي النومِ، وفي الحلمِ، وكذلكَ قضيتَ كثيراً في التذكرِ المكررِ، تجوبُ في دائرةِ النار، وهي تحيط بكَ، مشبهاً نفسكَ بالعقربِ المحاصر.

ما تتذكرهُ الآنَ، كما لو كان أكثر من عُمرٍ ورجوعٍ، هو هدأة في الرأسِ؛ عاصفةٌ معلقةٌ في الرأس، تستذكرها بالتذكر وتسترجعها، ثمّ تنضدها، ثمّ تطلقها. تقتات عليها؛ حلم غاباتٍ وتذكّر ملوكٍ ونوم خرافات. تأتي من الماضي تبتني لكَ بها زماناً ومكاناً وممالكَ، كذلك هي مرايا تتعالى فيَ التو، مثل أبراجٍ للحراسة تكسرها، لكنها تعكس في شظاياها أعماراً وأحلاماً متكاثرة.

لأنكَ قضيتَ طويلاً في الغيابِ، لم يكن ذلك إدماناً منكَ على العشب السحري، أو على الفهود الغاضبةِ، إنما كان إدماناً على الرغبة لأن تحقق ما تتذكره. وما تتذكرهُ لوحٌ من الماضي مسّتهُ منافي المستحيل.

مكتبة الفكر الجديد

تسقط ذات يوم، في الظهيرة، مكبلاً بالعجز فلا تجد سوى طيف تحلم بهِ، أوهو الذي يحلم بكَ. سيّان، لم تعد تعرف من أنت، وهذا كما تعتقد جميلٌ، ذلك لأنه وحيٌ آتٍ من الغيابِ، ولأنكَ تتوسعُ في الحدود.

جميل للغاية؛ أن تتوسع في الحدود لتكتسب الكثرة، لكَ وحدكَ، لا كثرتكَ في الآخرين.

زخرفةُ حرفٍ واحد،

تَجَمّعٌ لأعراسِ الضياءِ، وتجمعٌ لقداسةِ المصادفة.

أنتَ هنا في مدينتك الشمالية، أو في مدنٍ أُجبرْتَ للاهتمام بها، وقد رحلتَ إليها واحتميتَ فيها ببروق مدينتك من سنوات الرعود، تتفحص المدنَ فتنكر ألفتها. من غير مكان البيوت والتلال العالية والجبال الممشطة بالريح، أية مدينة منبسطةٍ تتسلق أعمدتها وتضع على حافاتها الخطرة مغامرة رأسكَ، متدحرجاً ثمّ صاعداً، لاعبا مثل حقول مضيئة؟.

ومن غير ذلك الخزان الأسود والخزان الأبيض للمياه فوق الجبلين هل كان بمقدوركَ أن تتعرّف على الأولياء وتجوب خطوط القوافلِ متصالحاً مع مهربي التبغ واللصوص؟ وهل كان بمستطاعكَ أن تتأمل وتحزمَ تحت أشجار الصفصاف دعوات النبوّة فتصطدم بعرش التجلي؟. في مدينتكَ تطيلُ ضفائركَ مثل العندليب فتكون قريباً من الروح قبالة الآلهة وَلِهاً في العشق بين صبايا يأتين من الضباب.

مكتبة الفكر الجديد

٢ ـ مملكة غير مفترضة

أيّة مدينةٍ جاءت في غمرةِ الغسق توقظ الطيور،
أيّة مملكةٍ توسّدتِ العشقَ فاتخذت الأوقات زوجاً لها،
أيّ صبي تَوَلّعَ بالبهجةِ،
مَسَكَ ريحَ المدينةِ
وتحدّثَ مع النهر ليمتلك مدينة تمتلكه؟
أيّ غريبٍ استأنسَ الغبطةَ
ثم طال في الظهيرة غفوةَ الناس فأثمرَ بها الشجر؟
أية كمائن اصطادت لي الأزمانَ فدحرجتها مسِفّةً ضعيفةً،
قبالة فيض من الأعراس، تخترع الأعراس؟

مدينةٌ تينعُ في المياه
هي مياهٌ ومياهٌ، مياه الآخرين،
هي مدنٌ، ممالكٌ، ممالك الآخرين.
مياهي وممالكي يرمونَ في سواقيها بذرة العفن،
ومن غير السواقي لا تُختَزَنُ المياه في المنابع،
من غير المنابع لا تُحفَر السواقي،
ومن غير السواقي لا تُخترَق البيوت بفيضِ المياه،

مكتبة الفكر الجديد

وناسها يغدون عطشى.
من غير الأنهار، منحدرةً من كبدِ الآبار،
لَما كان الناسُ يتعرفون على بعضهم
ويَمسّونَ الصباحات بيقظتهم فيقطفون ثمار التوت.
من غير مكامن المودةِ، في الرجوع إلى الأسلافِ
بقوارب الزمن، مَن كان يفرح بالنداء المُوَجّه إلى الطيور،
يهشّ الهدهدَ والعق عقَ ويتحدث إليهما بلسان الأنبياء؟.
مِن أين كان لي أن أتذوق طعم الرمان
متوسداً حر الظهيرة، مكتنزا بَرودة الأعالي،
أو أن أمسَّ النسوةَ يتفيأنَ ويمشطنَ ويُسَرّحنَ الزمنَ
ثمّ يتحسّسنَ الجسدَ مكتنزاً بالرغبة؟

مكتبة الفكر الجديد

٣ ـ مملكة مختلقة

مدنٌ كالآجرّ معقودةٌ ببعضها
تُحفّزُ الغوايةَ؛ تفترض الحقيقةَ
وتخلق الماضي، ثمّ تعاف ما سيأتي.
في مكانكَ المتروك عصفت الأعاصيرَ،
وهي تعصفُ بكَ،
لكنكَ سقيتَ بماءٍ آسنٍ
كلّ ما أفترضتَ من أوهامٍ
فغدوتَ رهينة
الاختلاق،
لكَ ممالك تعلي من شأنها
وأخرى تتنكرُ لها.

مكتبة الفكر الجديد

٤ ـ مملكة اليقين

المنحدر الذي تنزلهُ دوماً
هو المرتفع الذي صعدتَ إليه،
تمسكُ المسافةَ باليدِ، وأردتَ أن تُسوّي الارتفاعَ بقعةً للنومِ،
فصعدْتَ من القاع إلى الأعلى، تضرب النجومَ؛
لَكَ مَجرّتكَ تتأملُ بها وتخوضُ فيها،
وفي عرائها تؤسّس لكَ مملكةً لليقين.

مملكةٌ تجولتَ في طواحينها الحجرية.
المياهُ تهدر، والمياه بين الأقداح تجول،
تسف الرياح بيد العفاريت فتكسفها المجاري
تطرد النوايا رملَ الخبثِ فتجرفهُ الينابيع إلى الآخرة.
من زمان والنهر أُلْعُبانٌ يضحك عليكَ وعلى الغبار
وعهدي رمال تعجنها الأمطار فتجف.
يتحدثُ السمكُ، يختزنُ الماءَ لأيام القطيعة،
وللشيوخ المتكئينَ على الأسرّةِ،
وهم يودعون الزمن.

مكتبة الفكر الجديد

وهل كانت هناك قوّة لساحرٍ يسترجعُ بها الأوهامَ، أو قدرة على إحالة قلب مندهش، لا يعرف إلى أين سيمضي، ليكونَ مضخّة؟. وبأيّ فم سينهش جسده؟. في مدينتكَ مواعيدٌ للترحالِ، اندهشت بها وكررتَ حضورها، وجرّبتَ قطاراً هرماً يعرف حديدهُ المستقيم، مِن غير أن ينهض بغفوات مديدة، أن يصلَ ممالكَ الآخرين، ومِن غير دخانه الأبيض، يطرد بهِ الأشباحَ، تبدو المدينة عارية من التاج، شمسها مرهونة للغائبين.

كل ما تتذكرهُ الآنَ يزدحمُ كالفيضان،
يختلط عليكَ، لكنه جميلٌ بهذا الثراء
لو لم تهددهُ العاصفة.
تلك الرياحُ العاتية تصِرّ وتدورُ
ضاربةً
مدنَ
الآخرين.

مكتبة الفكر الجديد

٥ ـ مملكة وسيطة

مشيتُ مملكةً فالتقيتها،
موثرة في الغياب، مصطفة بالثلوج.
كنتُ قد مشيتُ أُخرى كانت حجباً وحقولاً
استطعتُ فك رموزها واستعادتها بالكلمات.
ممالكٌ تهجمُ في الحضور مزدحمة، دَعَوْتها
ولربما جرّبتُ نفرتها وأنا أبتدعُ أُلفتها،
لكنني عند المغادرةِ سمّيتها
زهرة الذاكرة
مُبعداً عنها الأفاعي.
مدمناً، صباح مساء، على جثمانها المُسَجّى بالورود،
هكذا، صباح مساء، فكّكتُ قيودها
فقدّمت لي في الوضوحِ الوعود.

ممالك قوّتها جاذبةٌ في الغياب،
أقنِعَتها ومراياها مطارات وهميّة لطيوري
وجيشها السري من الناس
ضباعٌ يتآلفون.

مكتبة الفكر الجديد

ممالكٌ يأتيها الملوك، ويدوسها الفرسان فتفرش حضورها.
من زمان أتمرى بخيالها، ونصطرعُ
أُسَمّيها، أحيَاناً، عشبة الروح
أو أناديها، غالباً، ليل الذاكرة،
مُشذِّبوها، معذبوها ومسترجعوها
مُوَسِّدوها، ومُفسِّروها الأقدمونَ
يتّكئون، في ظل المكان، ليمسكوا حزمة الأفاعي
أحلام تلدُ أفاعي الرحمة
كما في الأساطير،
هيَ أحجيات ملاك.

لكنها المملكة؛ ترسمُ في الرأسِ الصخورَ
والغبارَ وأكاسيدَ الرصاص،
أعرفها بمرارة فمي،
أتذكرها، غوَاصةً لليلِ، زرقاء رمادية،
تغرقُ في أنواءٍ مبحرة
فأبعثُ بها أعشاب التذكرِ ـ عشبةً عشبة،
وأرسل لها أجنحةً لنبات مسائي، جناحاً
معبئاً بالهواء يعصف ويطارد الثعالبَ
ناصباً لها الفخاخَ في الحقول.

مكتبة الفكر الجديد

لكنها ممالكُ تورقُ صخوراً، أو مثلما تريد،
ترمي أمامَ الأقدامِ ساعات مهشَمة
أو تنصب مراياً لقبورٍ مفتوحةٍ
جميعها صورة أملاح وغبار وأكاسيد
تمسكُ بيدي ثم تقودني،
مُلَخِّصاً من الوضوحِ،
نحو ممالك الآخرين.

مكتبة الفكر الجديد

٦ ـ مملكة الناس

مملكةٌ مختلفةٌ هيَ مملكة النسيانِ تعيدها لنا الشرطة
مملكةُ أسفارٍ موقوفة مملكةُ الأصفادِ حاضرة التكرار
مملكةٌ مبهمةٌ للموتى مملكةُ علاماتٍ ودلالات غامضة
مملكةٌ تصغي لموعظة مملكة تأتي من الماضي القريب
مملكةٌ معبأةٌ بالصوتِ مملكةُ الشيخوخةِ هذهِ لا تريدنا

مملكة السحبِ مملكة القوانينِ مملكةُ
الناسِ مملكةُ الرغبةِ مملكة السلطةِ
مملكة الإصغاءِ مملكة الأول مملكةُ
الثاني مملكةٌ مُرصّعةٌ بنجومٍ خشبيّة

مملكةٌ بريئة الأحلامِ مملكةُ النسيانِ والاستعادة
مملكةُ أرقامٍ للجنازاتِ مملكةٌ تنقصها البهجة الطارئة
مملكةٌ تشبهُ الأسلافَ مملكةٌ تعيدُ نفسها بتكرارِ القبائلِ
مملكةُ اسماكٍ بلا أحلامٍ مملكةٌ مضافة إليها أنهار جافة
مملكةٌ في عيونِ مطفأةٍ مملكةُ رباطٍ من فخاخ جاهزة

مكتبة الفكر الجديد

هذهِ هي المملكةُ المفترضةُ، تطوفُ ببواديها الضواري مُتحققةً برغبةٍ من الله. مدينة الرّبِ منصوبةٌ على أعمدةِ السماء السابعة. تأتي عليها الرياحُ، فتسيّرُ لها الملائكةُ العواصفَ والصواعقَ. إلى أينَ ستذهبُ أنتَ بمخاوفكَ الحجرية؟ بأيّ يومٍ ستحلمُ ومملكتكَ تزدانُ وتتكاثرُ في الصحو وفي النوم؟ تَلفّعْ بغطائكَ، هذهِ المملكةُ لغيرك

مملكةٌ منظمةٌ للغاية مملكةُ الأخيلةِ يَمسّها عشبٌ بحري
مملكةُ إشاراتٍ ورموز مملكةٌ وراءها أعداء ثملون
مملكةُ ملوكٍ وشحاذينَ مملكةُ الروح الثانية تعد بالصعود
مملكةُ أسماك ميّتة مملكةُ مقايضةٍ بالنقود المزيّفة
مملكةُ محاكمةٍ للنومِ مملكةُ وحي والمؤولونَ أنبياء.

مكتبة الفكر الجديد

٧ ـ مملكة راهنة

وهل «تحدثُ أسفاركَ إلاّ في الماضي»؟
وهل موانيك سقف المرتفعات، كانت بها الأرواح تئنُّ
وتؤلّفُ لك المزايا، وتراكمُ التقاطعات؟

مملكةٌ عاليةٌ من رمالٍ نسجتها الآلهةُ
أمطرت فأمطرت
كل ما في الغيابات من وضوح
فسيّرتَ لها العواصفَ.
تدعو إلى عشائك الرمزي الأرواحَ كلها
وتجرّ إليهِ عوائلَ الوحوش،
وها أنتَ تؤلفُ المملكةَ ـ وصلتها في الغمرِ،
ورأيتها في الطوفان
مشيتها في الشيخوخة، نسجت لها الحقول.

مرآتك معتمةٌ
تغادرها،
ربما

مكتبة الفكر الجديد

تأتي إليها، سيّانٌ ذلك
لأنّ أياديك فائضة، والعيون مطفأةٌ
وليسَ ثمةَ إلا عواء
في
صحراءِ
قلبكَ
القديم

مكتبة
الفكر
الجديد

الفهرس

ممالك الوهم وهم الممالك ٧
ممثلون ١١
سلالم ١٨
موكبُ آذار ٢١
شخصان ٢٥
تماثلُ الصورة ٢٨
رؤيا إبراهيم ٣٣
صورةٌ محمد ٣٧
كلمات عن الأشياء ٤١
١ ـ سُؤال ٤١
٢ ـ مِنضَدة ٤٢
٣ ـ طريق ٤٣
٤ ـ الأيّامْ ٤٤
نباتات وأحجار ٤٦
عودة ٥٢
الوليمة ٥٤
زيارة ٥٦

مكتبة الفكر الجديد

زهرةُ النهاية ٥٨
انتظار ٦٥
ليلة الالفة ٦٨
حالات شاعر ٧٤
مشروع روميو ٧٧
المقبرة ٨١
مَشهد ٨٥
أعمى من قرطبة ٨٩
مَشهدٌ على دجلة ١٠٠
آخر الليل ١٠٤
ملوك ١٠٨
مُسودَّةُ الطفولة ١١٠
صداقات ١١٤
الذّئب ١١٧
جليل القيسي، حارسُ المدينة ١٢٠
جان دمّو (١٩٤٢ ـ ٢٠٠٣) ١٣٤
في غفلةٍ من نوح ١٤٢
سُفنُ المحبَطين ١٥٧
١/المخيلة ١٥٩
٢/سيرةُ بَحّار ١٦٠
٣/سَردُ الأحداث ١٦١
٤/أخبارُ العبور ١٦٢
٥/المهاجر ١٦٤
٦/المرفأ الأول ١٦٤

مكتبة الفكر الجديد

٧/أرقام ١٦٦
٨/مهاجرون ١٦٧
٩/هدفٌ آخر ١٦٨
١٠/أنباء البحر ١٧٠
١١/الطريق عبر الأطلسي ١٧١
١٢/المرفأ الأخير ١٧٢
١٣/حوادث عرضية ١٧٣
معجزةُ المُتنزه ١٧٥
رَتقُ المُخيِّلة ١٨٢
١/مرايا ١٨٣
٢/قبران ١٨٤
٣/تساؤل ١٨٤
٤/براءة ١٨٥
٥/رماد الفيلسوف ١٨٦
٦/شهود ١٨٧
٧/معرفة ماركوزه ١٨٩
٨/فاطمة ١٩٠
٩/أم حسين الموسوي ١٩١
١٠/سورة العائلة ١٩٢
كتابةٌ عن موت ١٩٥
١/ليلُ الأعمى ١٩٥
٢/تقرير رويترز ١٩٧
٣/كلمات... ك ل م ا ت. ١٩٩
٤/إضافة ٢٠٠

مكتبة الفكر الجديد

٥/آلهة ٢٠١
وَعدُ الجَنّة! ٢٠٤
لجوء أحمد ج. ٢٠٦
١/على الطريق ٢٠٦
٢/في الملجأ ٢٠٨
تأويل المكان ٢١٢
وهم المكان ٢١٥
لِقاءُ المُدن ٢١٧
ممـالـك ٢٢١
١ ـ مملكة الدهشة ٢٢٣
٢ ـ مملكة غير مفترضة ٢٢٥
٣ ـ مملكة مختلقة ٢٢٧
٤ ـ مملكة اليقين ٢٢٨
٥ ـ مملكة وسيطة ٢٣٠
٦ ـ مملكة الناس ٢٣٣
٧ ـ مملكة راهنة ٢٣٥

مكتبة الفكر الجديد

هذا الكتاب

تتسم نصوص وقصائد مؤيد الراوي، بالأخص تلك المطولات منها، بمسحة سحرية وبقدرة على تحريك المخيلة وإثارة الجدل. انها قصائد تمسك بعالمه دفعة واحدة، وهو عالم غني متداخل متوتر، يكشف ويصدم في نفس الوقت. قصائده في الغالب مفتوحة كسهل منبسط يمكن التجول فيه.

عرفته منذ عقود مصرّاً على قتل الغنائية، والابتعاد عن التفعيلة. وتمكن فعلاً بلغته الخاصة أن يجسد رؤاه بشمولية ويحمّلها طاقة تأويل وتمثل.

سركون بولص

مكتبة الفكر الجديد